نجع
داوود

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: نجع داوود
المؤلف: ليلة الفاوي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 146 صفحة
عدد الملازم: 9.12 ملزمة
مقاس الكتاب: 20*14
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2693
الترقيم الدولي: 978-9921-815-84-9

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية

نجع داوود

تأليف

ليلة لفاوي

حلاوي للإنتاج الفني

"إلى أصدقائي الموتى الذين لَمْ ألتقِ بهم أبدًا.. إلا في منامي"

١

"لا تُطِل النظر، ولا تُلقِ السمع، ودعكَ من الناس"

إنك في... نجع داوود

***

اسمي نور، وأبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا.

ربما تسأل الآن مازحًا: هل نور فتى أم فتاة؟ إنه اسمي، يصلح للجنسين، ولكنه لم يصلحْ لي أبدًا، يقولون: إن لكل مخلوق حظًّا من اسمه، أعتقد أن هذه أسطورة كأسطورة أن البشر بداخلهم نبتتان من الخير والشر.

الأسطورة هنا نبتة الخير، لم أرَ خيرًا في الناس إلى الآن، فنبتتة الشر تنمو وتترعرع كلما مضينا في دروب الحياة، أما الخير فهو جذر عقيم لا يخرج من تحت التراب، وإن خرج طمسته الحياة، فلم يرَ النور أبدًا.

وبذكر النور، فقد تحققت الأسطورة، فبيني وبين النور صلة وطيدة، فيوم أَنْ ولدتُ انقطعت الكهرباء عن نجعنا

تمامًا. وبالحديث عن نجعنا، سأقص عليك تفاصيل عودتي من الخارج برفقة أهلي، بعد رحلة لجمع أموال تضمن لنا معيشة ميسرة، مثل (آل الفاديين) كبار أبناء قريتنا، الذين ورثوا المال والأرض والذهب.

وليبقى (آل داوود) كذلك فعل والداي أمرين في الغربة ملآ جيوبهما الواسعة بالأموال، ودفنوك يا أخي.. هناك..

أخي العزيز:

أحدثك اليوم في ليلتي الثانية من النجع، لقد عدنا صباح الأمس، لقد تغير النجع كما حدث لبيت جدي الذي ورثه أبي بعد موت أعمامي التسعة (موتة ربنا) كما يقولون، ولكن تخيل أن يموت التسعة بنفس الميتة؟!

لقد أدهشتني براءة حديث أبي عن الحادث، ولا مُبالاته بسقوط بيت جدي من مُنتصفه تمامًا، أو غرفته تحديدًا، تخيل يا أخي أن جدي خُسِفَ به وبغرفته الأرض، وكأن نيزكًا قد دمرها.

قال أبي: ما تفكرش، وما تقربش من البيت، وسيبك من الناس.

لم أتوقع وصايا مختصرة أكثر من هذا، فهو لن يبالي كثيرًا بعشرة أمتار من ألف كان ميراثه، أو ما أصبح ميراثه بعد موت إخوته.

البيت كبير، وهو أشبه بالقصور، وله سور عال تتكوم أعلاه جذوع العنب الجافة، ورؤوس الأشجار التي تخرج من خلاله تبلغك بطول الأشجار من الداخل للحديقة، قبل بلوغ القصر نفسه، وللسور عدة أبواب: منها الضخم ومنها العادي.

انظر يا أخي، لقد أغلق أبونا الأبواب بالأقفال، وبني جدارًا غليظًا، وأخرج بهذا من محيط البيت غرفةَ جدِّنا، وكأنه ضريح مهمل، لا شك أن جدي راضٍ عنه، لقد فعل هذا خلال يوم فقط من لحظه عودته، رأيتُ الرجال يبنون الجدار ويتهامسون فيما بينهم، بينما أبي يقف بعيدًا كالمسمار لا يتحرك، أما أمي فقد ملأت البيت بالنسوة المُتشحات بالسواد، وطلبت منهن غسل الجدران والأرض بالتراب والماء، لقد رأيتُ الطين يلطخ ثيابها ووجهها قبل أن تغلق الباب في وجهي وتشير لي بالابتعاد.

أنا لا أفهم يا صالح، ما شأن والدينا منذ عودتنا؟! إنهم يولون البيت اهتمامًا كبيرًا، لكنهم يسكنون المُلحق الخارجي الذي بينه وبين سور البيت أكثر من أربع وأربعين قدمًا، لقد عددتُهم، فأنا لا أستطيع سوى السير حول مُحيط البيت، ولا أستطيع دخوله بأمر والدَيّ، ولكن ما يثير دهشتي هو طاعة أهل النجع لهما، لقد رأيتُ العمدة اليوم يبني في الجدار وهو يرتدي عباءته السميكة وعمامته البيضاء ووشاحه المزخرف بالخيط الذهبي، لو رأيتَه ما توقعتَ أن يفعلها بملابسه هذه أبدًا، ناهيك عن مكانته ومنصبه.

انظر إلى والدَيْنا، إنهما لا يتحدثان معًا، صامتان دومًا، لا ينظران إلى وجوه بعضهما البعض، ولا إلى وجهي.

أقسم لك: إنهما لا يتحدثان، ربما أمامي، لكنهما يبدوان كما لو كانا يخفيان أمرًا، لقد مللتُ النجع والبيت وأضواء المُلحق الحمراء.

الآن علّي الذهاب، لقد أُضيء الكشاف، أتطلع نحو المُلحق بقلق، لا شك أن أمي ستصَرخ الآن، أعود للنظر إلى رسالتي في دفتري، ولكني انتفضتُ فجأة لرؤية ظل رجل أحدب بجانبي، وسريعًا ما تلاشى، فتحركتُ سريعًا نحو المُلحق، فما زال الكشاف يضيء بإصرار.

مُلاحظة: الكشاف إشارة للعودة إلى المُلحق.

سأعود للكتابة غدًا لأخبرك بالمزيد، فقد حدث قبل قليل أمر مُروع.

(يا نوووووووور)

لقد بدأت أمي بالصراخ.

سأودعك الآن.

نور سعد داوود

قنا.. نجع داوود

٢٠٠٥

الساعة: ١٠م

صباح الخير يا أخي.

هل رأيت يومًا مشهد الطيور بالمساء حين تخلد إلى النوم؟ إنها تتراصّ بجانب بعضها فوق حافة الشرفة، أو حافة الجدار، أو حافة المنازل.

تسقط رؤوسها عند غروب الشمس، فلا ترى بعدها إلا في شروقها.

كيف تأمن الطيور النوم بهذه الحال؟ وكيف يأمن الشاب فوق بيت الحاجّة (تماضر) -كما أخبرني أبي- البقاء ليلاً مُتربعا فوق حافة بيته؟

أراه يجلس هناك كفزّاعة (خيال مآتة)، ولولا انعكاس ضوء القمر على نظارته ما انتبهتُ، فمصابيح النجع أحسنُها خافتُ، وأكثرُها منطفئ.

لا شك أنه وحيد أو يشعر بالسأم، فالنجع كئيب لا حياة فيه، أين مواضع الرفاهية في هذا القبر الكبير؟ أين مجالس الناس والسهر والنميمة؟ غدًا سأذهب وأبحث لعلي أجد ولو مقهى.

لن أطيل عليك وسأخبرك تفاصيل اليوم الثالث.

أبي يجلس كعادته تحت شجرة عجوز تتوسط المنطقة أمام

بيت جدِّي الكئيب، إنها شجرة ضخمة جافة، تبدو كأنها مركز الكون من ضخامتها، وأمي لا أدري أين هي، إنها تغيب أغلب الوقت، لذا بحثتُ عنها لأخبرها عما رأيته أمس.

لقد أشرتُ إلى أمر مروع، فقد رأيتُ فتاة تصرخ، وعندما ركضتُ للتحرِّي عن الأمر أوقفني شاب ضخم الجثة، وقال لي: إنها (ملبوسة).

هل تعرف معنى (ملبوسة)؟ أي أصابها مس شيطاني.

لقد أشفقتُ عليها، فقد كانت تصرخ بجنون، وشعرها الطويل يغطي وجهها، بينما حولها ثلاثة يحاولون السيطرة لإعادتها إلى منزلها، ثم وجدتُ أبي فوق رأسي يشير لي بالعودة إلى المنزل.

أطعته بصمت، وكتبتُ لك قبل أَنْ أندس في فراشي، لقد ظللتُ طوال الليل أحاول النوم، أخبرتك أن المكان هادئ، لكن الليلة شعرت بأصوات غريبة، ثمة بكاء وضحك: بكاء رضيع وضحك امرأة.

أردتُ التسلل للاستطلاع عبر نافذة الملحق، بينما أستلقي على أريكة من ثلاث في ردهة الملحق الضيقة ذات اللون الأزرق القاني، ليزيد المكان كآبة.

تحمل جدرانه بشجاعة سقفًا طينيًّا مطليًّا باللون الأبيض، بينما الغرفة الوحيدة بها أمي، وهي أضيق من الردهة نفسها، حشرتُ فيها خزانتي بجانب منضدة وضعتْ أمي عليها كل كراكيب العالم، وبها حصير غريب ذو ألوان مُتداخلة، وقد كسا الأرض فلم أعد أعرف لون أرضيتها، ولكني اكتشفتُ بعد ذلك أنها أرض من طين، بها مسحة من الإسمنت الذي تحطم كبرياؤه من خطوتين، فسقط القناع لترى تراب الأرض يخرج من ثناياه.

أما المطبخ فهو على جانب ممر الخروج، لم أدخله ولم أفكر أصلاً.

أما الحمام فلا عزاء!

ألتف على أريكتي لأسترق السمع، لكن أمي جاءت للتحرِّي، فأغمضتُ عيني واستسلمتُ للنوم.

"تشو تشو تشو"

فتحتُ عيني مرة واحدة، كانت ضربات بندقية (خرطوش)، أنا أعرف هذا الصوت جيدًا.

خرجتُ سريعًا لكن لَمْ أستطع رؤية شيء برغم بزوغ النهار، فثمة دخان وضباب أعمى الرؤية، كما أن الأصوات تأتي من

الحقل، خلف الشجيرات والقناة التي تفصلنا عن الجانب الآخر، ولا شك أن أبي سيغضب إنْ قطعتُ المسافة لطول القناة، حتى أصل للجسر الواصل بين الجهتين لألقي النظر وأتحرَّى، لذا طردتُ الفكرة عن رأسي وعدتُ لأريكتي، وقد تذكرتُ ما نويته أمس، البحث عن مكان للتنفس في هذا النجع البغيض.

جلستُ أفكر، وبينما أفعل سمعتُ صوت أقدام تعدو سريعًا بجانب النافذة، اقتربتُ للتحرِّي وأرهفتُ سمعي، كانت الصوت لأقدام سريعة تطاردها أقدام أسرع وخفيفة كأنها لمخلوق من ذوي الأربع، توقعتها كلابًا، وتخيلتُ ذُعرَه، وفتحتُ النافذة بفضول وحذر.. سمعتُ صوت التكة المُميز للنافذة، ثم وجدتُ صمتًا بالخارج، ظررتُ أرقب الصمت لبضع ثواني، ثم وجدتُه يستدير عائدًا نحوي بلهفة، كما لو أنه سيقفز داخل الملحق، لكني أغلقتُ في اللحظة الحاسمة، ووجهي يملؤه الذعر، ولا أدرى ما الذي كاد يهاجمني.

لذلك تراني أقف موليًا ظهري للنافذة، وقلبي ينتفض، أزدرد لعابي بصعوبة.

ظللتُ على هذه الحال حتى الصباح، ورأيتُ أمي تخرج من غرفتها المقابلة لأريكتي، فتحركتُ مطمئنًا وارتديتُ قميصًا وبنطالًا تناولتهما بشكل سريع، حتى تقيأت الخزينة

مـا بجعبتهـا، فتجاهلتُهـا وغـادرتُ قبـل أن تراهـا أمـي فتلزمنـي بترتيبهـا بعـد وصلـة تقريـع عنوانهـا: (مـا أنـا الخدامـة الـلي جابهـا لكـم أبوكـم).

المُحـزن أنـه لَمْ يعـد أبانا، بـل أصبح أبي فقـط بعد موتك يـا صالح.

أسرعـتُ راكضًـا ككلـب الليـل عـن مُحيـط منـزلي، تسـتوقفني رؤيـة أهـل النجـع وهـم يرتـدون جميعًـا الجلبـاب والوشـاح، والنسـاء يلتحفـن بالـبردة السـوداء الشـبيهة بالمئـزر المميـز لنسـاء النجـع جميعًـا، وجـذب انتباهـي تحركهـم جميعًـا في اتجـاه واحـد.

سرتُ في طريقـي غـير عابـئ بخطواتهـم السريعـة، وأنـا أتطلـع نحـو كل شيء وأمـلأ عينـي بصفـاء السـماء، وأعـود للتطلـع إلى طريقـي الـذي خـلا مـن النـاس، كأنهـم لَمْ يمـروا أصـلاً.

طريـق طويـل يحـده مـن اليمـين منـازل مـن طـين مُتراصّـة كالصناديـق، ومـن اليسـار تنشـق قنـاة بلونهـا الأخـضر الزيتـي الكئيـب، بـدت كبركـة راكـدة تطفـو أعلاهـا أكـوام مـن القمامـة والحشـائش، كـما يطفـو بهـا جـوالات منتفخـة ممتلئـة بالقـاذورات، إنهـا مُنتنـة بالأشـياء القـذرة أكثـر ممـا هـي مليئـة بالمـاء، أمـا عـن الجانـب الآخـر مـن القنـاة فهـي أرض خـضراء لا نهايـة لهـا، وفوجئـتُ بالشـاب هنـاك مائـلاً عـلى حافـة القنـاة، وكاد يسـقط وهـو يسـتند إلى شـجرة تطـل عـلى المـاء.

أسرعتُ نحوه هاتفًا: إوعى تقع..

بدت ملامحه مرهقة للغاية وهو يمسح وجهه بطرف جلبابه، لتظهر سيقانه النحيفة كوجهه، وهو يقول: أنت مين؟

أهمني أمره، فتجاهلتُ سؤاله قائلًا: قول لي أساعدك إزاي؟ أنت ابن مين؟ أنادي لك حد من أهلك؟

أجاب بإعياء: أنا حميد.

ثم عاد يسأل: أنت مين؟

أجبته باستسلام: أنا نور، ابن سعد، تبع بيت آل داوود.

تمتم لاعنًا: الله يلعن بيت داوود.

لم أفهم، وهممتُ لسبِّه غاضبًا، لكني توقفتُ حين عاد يميل وأخذ بالتقيؤ، وأدركتُ أنه كان يفعل من قبل، منحته منديلاً وساعدته على الجلوس وأنا أسأله بانشغال متحاشيًا عدوى قد تكون: أنت شكلك تعبان يا حميد.. إيه اللي تاعبك؟

لوح بيده وهو يستند إلى الشجرة بوجه متعرق باهت، قلتُ بغرور عجيب ممزوج بالضغينة: النجع قذر، أكيد صابتك حاجة في الأكل، ده حتى النفس هنا صعب، ويمكن قرصتك ناموسة نقلت لك عدوى ولا حاجة، الحاجات دي يمكن تفتكرها بسيطة بس هي في الحقيقة خطيرة.

أجاب بلهجته الصعيدية المعطشة: لأ ما صابنيش حاجة، اتكل أنت يا ابني.

شعرتُ بالضيق، لكني أمسكتُ لساني، وقلتُ بلا مبالاة وأنا أستدير لأبحث عن طريقي: أوك قشطة تمام، خليك أنت موت هنا.

رمقني بنظرة حاقدة قبل أن أغادر حيث نويتُ، مشيتُ كثيرًا، الأتربة في كل مكان: الأرض والجدران وأوراق الشجر وسعف النخل، يزعجني منظر الماء وتلك الجوالات المنتفخة التي تطفو أعلاه، أكملتُ طريقي، الطريق خالية من الرجال والنساء، وركض الصغار وتلصص العجائز وجالسي الطريق، أتساءل عن الجميع باحثًا، عيناي تتنقلان من عتبة إلى أخرى.

وأخيرًا.. هناك.. وجدتُ الزحام.. ركضتُ إليه ركض التائه في الصحراء، أرتشف الألفة من وجوه الناس، فوالداي لم يعودا على وفاق، ويبدو أن تخطيط والدي للاستحواذ على مال أبيه لم يحصد له السعادة كأمي.

آثرتُ أن أركز فيما أنا فيه الآن، وأترك التفكير لاحقًا.

توقفتُ أمام بائع العنب قائلاً وأنا ألتقط حبات منه: بكام يا حاج؟

تفحص هيئتي بعدم اقتناع، ثم قال: بخمسة.

ثم أضاف بتساؤل وهو يتفحصني في حيرة وتمعن: جاي مع مين أنت؟

ضحكتُ وقلتُ بشيء من التعالي: هو أنا صغير؟ أنت عارف أنا ابن مين هنا؟

قال بمضض: ابن مين؟

أجبتُ: من بيت داوود.

تغيرت ملامحه وتلون وجهه، وهو يقول من بين أسنانه المهدمة: يلعن شرهم.

توقفتْ حبة العنب في حلقي، وشرعتُ أسعل لإخراجها، بينما جر الرجل عربته بعنف، واختفى بين الجميع، وتعالت الأصوات:

(حلوة يا بطاطا.. معسّلة يا بطاطا.. سوقك يا بصل.. الخمسة بخمسه يا بصل.. قرَّب وبص.. الخمسة بعشره يا طماطم)

(صريمة وخية البهيمة حديد، ترفس ما تفك يا واد عمّي)

البلح بتلاتة ونص.. قرَّب واملا بطنك.. فطورك عندي.. قرَّب.. سمك مقلي من البحر.. حلِّي خشمك بجلاب العسل يا عسل)

أزعجني قول الرجل، وكدتُ ألحق به وأضربه، وأزعجني أكثر أنهم يسمون النيل بحرًا.

تركتُ السوق وأنا أحمل خيبتي، على ما يبدو لستُ الوحيد الذي يشكك في براءة عائلته.

منعتُ نفسي من التفكير في العودة إليه، والبحث عن أسباب لقوله هذا، وساعدني رؤية تلك الفتاه الطويلة ذات الخطوات المائلة، سارعتُ لألحقها، ورميتُ سؤالي قائلاً: هو أنا فين ألاقي قهوة هنا؟

نظرت لي من خلف حجابها الذي غطَّى وجهها بالكامل تقريبًا، فلم يظهر سوي عينين زادهما الكحل الأسود روعة، وقالت باستحياء: وأنت عايز مين في القهوة؟

أجبتُ بتلقائية: عادي.. عايز أقعد شوية.

مصمصتْ بشفتيها من وراء حجابها وهي ترفع حاجبيها، ثم قالتْ: آخر الشارع، بس تعدي من الجبابين.

لَمْ أفهم، فرددتُ وراءها: الجبابين؟!

ثم استدركتُ: أها، تقصدي المقابر؟

أومأت موافقة، وهي تقول مؤكدة: أيوة الفساقي.

وهمَّـت بالذهـاب، ولكنـي أوقفتهـا قائـلًا: ممكـن تاخدينـي في طريقـك تورينـي الطريـق؟

لَمْ تجِـب، وتقدمتنـي، يبـدو أننـي أعجبتهـا فوافقـت، كانـت لهجتهـا رائعـة وهـي تحكـي: هتمـشي طـوَّالي هتلاقـي في آخـر الشـارع مدرسـة الإعداديـة عديهـا، الجبابـين جنبهـا، مـا تنـدلاش المزلقـان، هنكهيتـي الكنيسـة، إوعـاك مـا لنـاش صالـح بالنصـارى، هتلاقيهـم ملمومـين علشـان قـرب أبـو سـيفين، أنـت بـس عـدي الشـارع بـس بالراحـة عشـان العربيـات والتكاتـك، واسـأل وهنـاك هيدلـوك.

رددتُ بتساؤل: أبو سيفين؟!

قالت وهي تتمعن وجهي: كنَّك غريب.

أجبتُ: بالظبط، أنا أول مره أسمع و...

قاطعتني بعدوانية: أنت هتحكي لي قصة حياتك؟!

ابتسمتُ لها ببلاهة قائلًا: تمام، شكرًا جدًا ليكِ.

بـدت لهجتـي ظاهـرة الاختـلاف، ولكنهـا لم تبـالِ، وهمَّـت بالذهـاب، فأسرعـتُ أضيـف: قلـتِ لي اسـمك ايـه؟

عـادت تنظـر مـن خلـف حجابهـا، وقالـت وهـي ترمقنـي بطـرف عينهـا: مـا قلتلكـش.

وتقدمتْ فجأة مسرعة بلهفة كبقية الناس من حولنا، نحو رجل رث الثياب مبعثر الهيئة، اقتربتُ بفضول وصعقتُ لرؤية شق ثيابه الذي جعله عاريًا تمامًا فأظهر عورته، بينما برأسه أكوام من التراب والطين، يجر أقدامه بحذاء منزلي ممزق، أظافره تحدثك تقول بوضوح إن آخر مرة قلمها كانت يوم مولده، أتطلع بدهشة نحو الجميع وهم ملتفون حوله يلثمون يديه، وهم يقولون: ادعي لنا يا شيخ عارف.

تأملت ثيابه، وأقسمتُ بيقين إن جلبابه أو ما تبقى منه التصقت فيه الأتربة والقاذورات، فلم يعد بمقدور أحد غسلها حتى تلونت بلون القناة.

تمتمتُ بتعجب: وهو يعني لو استحمى هتسقط عنه النبوة؟!

بينما أخذتْ هي تصارع للوصول إليه، وعندما تمكنت هلَّلتْ ورفعتْ يديها داعية، ثم غابت في السوق، شرعتُ أطالعها حتي ابتلعها الزحام، وعيني تدور ف فلك المكان، فالمئزر الأسود يسيطر على أغلب رواد السوق، امرأة تحمل ربطة من جريد النخل فوق رأسها، وأخرى على رأسها تقبض بكفيها أقفاصًا معقوده فوق بعضها، بينما تعض أسنانها طرف بردتها لتخفي وجهها، وأخرى ترص الجبن أكوامًا كمثيلتها

اللائـي ارتكنـوا صفـا لبيـع الجبـن واللبـن والزبـد والقشـدة، ومـن ورائهـن بـرزت العجـوز تتـوكأ عـلى عصاهـا، وهـي تضـع (القُفَّـة) التـي تحملهـا مـن عـلى رأسـها، وأخـرى تجـر جـوال قمـح لتفـرغ نصفـه عـلى كومتهـا، صعقتنـي قدرتهـا، وأنـا أتطلـع حـولي بعيـون كالمجهـر، السـوق أغلبـه نسـاء تشـتري أغراضًـا تحملهـا فـوق رأسـها باتـزان مبهـر مهـما بلـغ ثقلـه، وأخريـات يحملـن أوزانًـا تفـوق قوتهـن بكثـير، وبضـع رجـال أغلبهـم بائعـون، وجميعهـم سـواء تحـت الشـمس الحارقـة.

بـدا الأمـر كلوحـة فنيـة إطارهـا الرجـال وتفاصيلهـا النسـوة اللائـي أتـين واحـدة تلـو الأخـرى، حتـي اكتـظ السـوق بهـن.

وقفـتُ مـكاني هامسًـا بأسـف: السـت هنـا ناسـية إنهـا سـت، بـس فاكـرة إنهـا تغطـي وشـها.

والتفـتُّ سريعًـا نحـو أصـوات المزامـير وسـيارات النقـل التـي تمـر واحـدة تلـو الأخـرى، وهـي تحمـل أثاثًـا جديـدًا لبيـت، ومـن داخلهـا علـتْ أصـوات الزغاريـد والصيـاح، ووقـف النـاس يهللـون مثلهـم، وآخـرون أتـوا يركضـون للنظـر والاسـتطلاع، وآخـرون يقفـون أعـلى العربـات وهـم يتراقصـون بالأشـياء فخـرًا.

أسـمع صـوت امـرأة بجانبـي تقـول في لـوم: بيـت أبـو الحنتوكـي هيطلعـوا لنـا بدعـة جديدة، قـال جايبين غسـالتين بمروحـة وموتور.

ردت الأخرى: فنجخه يا بت عمي.

عادت تقول اللائمة: قال يعني بتهم المِسَهوكة مش هتعرف تغسل على إيديها كيف بناتنا، ده إحنا اتجوزنا بحلة وبقور.

لوت الأولى شفتيها، وتمتمت وهي تغادر: بدع و*** حريم.

صُعقت مِمَّا نطقتْ به، وأغاظني كذلك التِفَافُهم بالسيارة نصف ساعة كاملة حول السوق، وعدتُ أسأل نفسي بتعجب: لماذا يكتظ السق بالنساء؟! ولماذا لم تخرج أمي كذلك مثلهن؟! ولماذا لا تتزوج بنت أبي الحنتوكي في صمت؟!

لم أبالِ، وأكملتُ طريقي حيث أشارتْ، وبالفعل وجدتُ المقهى المنشود، لكن أغلب الرجال كان محلهم السوق كما أخبرني الصبي.

المقهى خاوٍ، طلبتُ كوبًا من الشاي، وحين تأخر الصبي ذهبتُ، وسرتُ وحيدًا بجانب المقابر أو الجبابين كما قالت الفتاة ذات العيون السود.

جذب انتباهي صوت رائق من الاتجاه الآخر، سرتُ نحوه وكان يبدو كصوت الربابة، وقفتُ عنده وهو يجمع أطفالًا أمامه متربعين على حصير في مكان فسيح بين القمامة، لم يدهشني ذلك؛ فالنجع قذر، ولكني توقفت أتابعه وهو مُمسك ربابتَه ويغني:

اتجـوزت شـفا بـدران الأمـين.. آه آه بـدران ده راجـل مـا لـوش ذمـة.. يعمـل أي حاجـة وقـت مـا يحـب ورجلـه تـدب.. مـا يعرفش الحـلال.. شـفا مـا كانتـش عارفـة مـن أعمالـه غـير قسـوته.. ضرب هنـا وشـتيمة هنـاك.. وكل مـرة تقـول ههـجّ والله بـس تفتكـر العيـال.. أمـل وجمـال.. آه آه..

أمـل في تالتـة وجمـال قـرب يدخـل الإعداديـة.. شـفا مـا قصرتـش وهـي تحـاول.. ربنـا يهديـك يرضيـك مفيـش سـمع.. وفي يـوم صحيـت شـفا عـلى صـوت جيهـان مـرات أخـو بـدران.. جاية لهـا تسـمَّع البلـد كلهـا بالخـبر الأكيـد.. بـدران هـجّ مـن مراتـه يـا ولاد.. بـدران رِكِـب القطـر ومـا عـادش راجـع.. بـدران اتجـوز وفـرّ مـن أهـل بيتـه..

شـفا وقفـت مكانهـا وقفلـت بيبانهـا وهبِّـت جـوه في عيالهـا مـن الوجـع..

أكل الوجـع وِشّ البنيـة.. مِرضـت وجفِّت..مهـما كان قـاسي بـس كان حبيـت العمـر دايـماً..

حاولوا يداووها يعكّزوها لكن..

شفا عمرها ما حسِّت بالشفا..

صحيت البلد على بكا ونواح طالع من بيت البنية..

جاموستي ماتت.. حيلتي ماتت.. راجلي هيجرَّسني يا ولاد.. هيزيد البعاد..

أهل البلد كيف القلب اللي انجلط..

بعدت شفا كيف الأطباء مش لاقين علاج.. يقولوا شفا عمرها ما حسِّت بالشفا..

جوم رجاله البلد يجروا خسارتها.. دي يا ما ربتها..

هيلا هيلا ورموها في الترعة.. ريحة الجاموسة فاحت.. كانت عفية ولحمها ساحت..

على ضفة الترعة همت البلدية من الشكاوى.. شيلوا القرف شيلوا المرض.. جيب زفت طين كراكة وعربية وزيحوها..

صرخ الصبي شوفوا الحقوها..

كف طالعة من بطن الجاموسة..

جت الحكومة واتلموا أهل البلد.. وقف الشاويش يبص بقرف.. مش قادر هموت ملعون.. ده شغل يجيب المرض.. أمره اللواء يكشف عن السبب.. جاب الفضول أهل البلد..

غصب عنه الشاويش مال وفتش وانذهل..

بطن الجاسوسه كانت مخبية العمل..

إيـد دراع رجـل صـدر.. ده إنسـان.. ظهـرت ملامحـه وكان بـدران..

دفنت حبيبها في قلب مالها..

شـفا ضحِّـت بالجاموسـة علشـان تـداري قهرهـا.. مـن حبيـب العمـر جوزهـا..

جـوم بالبوكـس والحكومـة لكـن العقـل ضـاع وضـل.. كتفوهـا ولملموهـا..

جنها الحب الحزين..

لذلك شفا عمرها ما حسِّت بالشفا..

أعجبنـي غنـاؤه بالربابـة، لكـن تفاصيـل القصـة أزعجتنـي، فتركتُـه وذهبـتُ.

توقـف لي (توكتـوك) لكنـي رفضـتُ، لعلي أصـادف الفتـاة مجددًا، لكنـي حـين أصابنـي اليـأس وأهلكنـي الـتراب استسـلمت وركبت، أنظـر للصبـي وعلامـات وجهـه وكفيـه تخـبرني أن الفتـى تعـرض لحـادث حريـق شـوهه، أحرجَتْـه نظـراتي وأحرجنـي بنظرتـه لي المعكوسـة عـبر المـرآة، فالتزمـتُ أدبي وتطلعـتُ بعيـدًا نحـو الطريق، ولكنـي لم ألتـزم طويـلاً، فقـد سـألته: بقـول لـك إيـه يـا...

أجاب سريعًا: رفاعي يا صاحبي.

أضفت: هو ليه كل الشوارع فاضية كده؟

أجاب ببساطه: لأن النهاردة السبت، السوق يعني يا أبو أخوه.

قلت: أيوة يعني السبت ده اليوم العالمي للسوق؟!

بدا أنه لم يفهم مزحتي أو تهكمي، فعدتُ أطالع الشوارع الفارغة من الناس.. "لأن النهاردة السبت" كما قال، أثنيتُ على طاعة الفتى، وكدتُ أرى ملامح بيتي لولا أنني اندفعت إلى الأمام فجأة، واصطدم وجهي في ظهر مقعده الحديدي وأنا أصرخ به: إيه الوقفة الغبية دي؟ ووقفت ليه أصلاً؟

شاهت ملامحه أكثر وهو يصيح غاضبًا: أنِي ما أروحش حِدَا بيت داوود.

صحتُ به: وليه ما تروحش بيتي بقى؟

هب من مكانه مفزوعًا، ودار حول عربته، وقبض على ذراعي هاتفًا بازدراء: أنت منيهم؟ انـدَلَّى يلا.. انـدَلَّى..

قلت: فيه إيه؟! إيه ده؟!

صرخ: ملعون ناسك.

وفرَّ هاربًا...

هتفت به: خد الأجرة طيب...

لم أره من الأتربة التي خلفتها عربته المنطلقة كالصاروخ، وأنا أهتف لاعنًا: يخرب بيت الحشيش.

وتأفَّفتُ من أحوال أهل النجع وجنونهم، واكتمل الضيق بهطول المطر المفاجئ، والآن سيتحول تراب النجع إلى طين بلا شك، وستغرز فيه أقدامي، شرعتُ أرمق الطريق باتجاه أثره، ولعنتُ ذلك السائق المشوه.

تركت لساقيَّ القرار، وقد سارا نحو البيت بأسواره العالية وجداره الجديد، الذي قسم الجزء الخلفي.

أي قرار مشوه أكثر من وجه السائق ذلك الذي اتخذه أبي ليقوم بتقسيم البيت الكبير بجدار من الطوب الأحمر يصل إلى السماء؟!

أقف أمام البيت الساكن أنظر إلى الشفق الأحمر الذي أتى يسحبه الغروب، ونقاط المطر تضرب الأرض والجدران معلنة إلغاء العمل الليلة، لا أدري ما حب الناس هنا للعمل بالبيت بالمساء؟ بينما بالنهار يقف أبي كالمسمار أمامه، البيت هادئ للغاية وخالٍ من البشر، لا شك أنه كان مليئًا بالضجيج قبل هذا، فتسعة رجال بأزواجهم وأطفالهم كانوا يسكنونه، فأين ذهبوا؟

أنـار عقـلي هنـا، واتسـعت عينـاي وأنـا أردد: حريـم أعمامـي وعيالهـم راحـوا فـين؟!

"يا بت خدي هنا"

التفـتُّ إلى الصـوت، وجـدتُ شـابًا أصلـع بلحيـة شـقراء وجلبـاب أزرق، يبـدو متلاعبًـا وهـو ينـادي فتـاة تلتـف بحجابهـا مـن بعيـد، تمتمـتُ بعـدم اكـتراث: دي بقـى قصـة حـب ولا بيعاكـس وهينـضرب؟

ولكنـي عـدتُ أشـعر بالتوتـر يـضيء داخـلي وينطفـئ، وتطلعـتُ حـولي أفحـص المـكان وكأننـي أخشـى النـاس، بينـما اقتربـت الفتـاة بخطـوات واثقـة، وتسـارعت حتـى وجدتـه يتراجـع عنهـا وهـو يقـول مصدومـا: عـلاء!!

وتراجـع كطفـل تـم ضبطـه متلبسًـا بجرمـه وهـو يقـول: والله مـا كنتـش فاكـرك أنـتِ يـا عـلاء.

علاء!!

صعقـت لرؤيـة امـرأة بجلبـاب أسـود وحجـاب وشـارب ولحيـة قـد نبتـا، بينـما قبضـتْ صـدر جلبابـه وهـي تقـول بشراسـة: جـرى إيـه يـا واد المنتـول، معتلمـش نفسـك عـاد ولا كيـه؟

تخلـص مـن قبضتهـا وهـو يهتـف برعونـة: مـا خـلاص يـا عـلاء

قلت ما أقصدكيش، شايفك من ضهرك، قال يعني لو عارف إنك أنتِ يا علاء هاجي وراكِ.

ظللتُ مبهوتًا فاغرًا فاهي وأنا أتطلع إليها، بينما لاحظتْ هي هذا فصاحت بي: وأنت كمان مين في سنتكم المتقندلة دي؟

تراجعت عنها قائلًا أبرئ نفسي: والله ما أعرفه.

ابتسم لي، وقال باستنكار: كيف ما تعرفش يوسف يوسفي أبو هدهد؟

هتفت هي بقسوة وتهكم: كنَّك ورثت منيهم، أصلك بيت أبو القمبور يا واكل ستك.

لم يهتم وهو يقول مخفيًا حرجه: ما خلاص يا عـــــــــلاء ارجعي لبيتك، أزعجناكِ كملي حرت.

قالت وهي توزع نظرتها المهددة بيننا: العِنقة دي عارفاها.

هتفت مدافعًا: مش فاهم، أنا ما أعرفوش والله، أنا من بيت سعد أبو داوود.

تراخت نظرتها عكس توقعي، وقالت بغموض عجيب ممزوج بالحزن: بقت لهم دريـة.

لم أفهم، ولكنها أشارت للأشقر بوعيد: المرة الجاية ****

صمتنا، وتطلعنا إليها بذهول ونحن متسمران كالسناجب، حتى عادت كالضبع إلى بيتها القريب، بينما تلاشى ذهول يوسف وهو يقول: فكرتها مَرَة من ضهرها.

سألته بخفوت: أومال هي إيه؟

أجاب بتلقائية: علاء.

لم أفهمه وهو يشير مغادرًا: أبوها كان عايز واد وبلانا بيها، ما عارفينها واد من بِت.

فكرت لثواني لأدرك من قوله أن الفتاة أُهمِلَت بهُويتها حتى أصبحت بين الجنسين: امرأه ترتدي رداء النسوة كما ينبغي، ووجه تحول لوجه رجل من الإهمال.

لم أعرف إلى أين أذهب، أقف مكاني حائرًا أسال نفسي كسؤالها المبطن بالدهشة: " بقيت لهم دريه"، إنها تعني أنه أصبح لهم أبناء، فأين باقي العائلة؟ أخذتُ بالاقتراب باحثًا يصرعني السؤال: أين ذهبوا؟ أصبحت أدور حول البيت لعلي أستطيع الدخول قبل قدوم العمال ليلاً، إِنْ أصرَّ أبي وأحضرهم، والشمس تنسحب آتية بالليل كالضباب، توقفت أمام باب البوابة أتفحص معالمه، باب خشبي ضخم تم طلاؤه باللون البني العتيق، نُقِشَت عليه رسوم طُمِست ملامحها بفعل الزمن،

وكأنما مرَّ عليه ألف عام، أدفعه بجسدي وعيناي تفحصان، فأرى حوافه مدفونة أرضًا بأكوام تراب استحالت حركته.

ابتعدتُ لعلي أجد مدخلاً آخر، أتحرك باحثًا بِوَجل، يقودني الإصرار، أحاول الولوج عن طريق باب صغير من الخلف، إنه مدخل لكلب، وكأنني أذكر موقعه، ودخلت منه قبل هذا، لا شك أنني لا أستطيع الدخول.. سأحشر جسدي ثم.. نياااااااااااو!!

أفزعني مواء هرة فجأة، فتعثرتُ بفروع الشجر الجاف لأسقط أخيرًا على ظهري.

انتفضتُ مرة واحدة، واتسعت عيناي بذعر، وحين استدركت نظرت إليه، كان قطًا أسود حالك السواد، لولا لمعة عينيه لم أكن لأراه من ظلمته التي جاوزت ظلمة الليل، وأنا أتطلع له أرضًا مستلقيًا على ظهري، والماء يضرب وجهي.

قلت وأنا أنظر إليه: فزعتني يخرب بيت سوادك، امشِ من هنا .

أقمتُ ظهري جالسًا وأنا أتمتم بإحباط: فيه سر بيخبيه أبويا هنا .

وأضفتُ ساخرًا: والقط شاهد.

ابتلعتُ جملتي حين اختفي القط في لحظة، فأضفتُ وأنا أشد قامتي وأرتب هندامي: حتى القطط مش عارفة تدخل تسترزق في بيتك يا جدي، والكل بقى يلعن أصلنا بسبب أبويا.

عدتُ أتطلع عاقدًا العزم على المحاولة، ثم قررت الذهاب، ولكني عدتُ أختبئ عندما لمحت ذلك الظل الأسود.

التصقتُ بالزاوية..

وجف حلقي..

وسمعت صوتًا..

"يا نور"..

"يا نور"..

أدركت أنها أمي.

ارتعبتُ لفكرة اصطيادي هنا، وقد أشار أبي بألا أفعل، ولا شك أنها ستصاب بالجنون إن عرفت، فما زالت غاضبة من أبي وإن صمتت، إنها تحمِّلُه جزءًا من كل ما يحدث، كما يفعل الجميع.

"يا نووووور"..

كتمتُ أنفاسي، والتصقتُ بالحائط، ومن بعيد التقت عيناي بعيني القط الاسود المرتكن إلى الزاوية، فأشرت له بالصمت،

فغـادر طواعيـةً، فاسـترخيتُ حامـدًا الله أن المصبـاح القريـب التعيـس لم يُنَـرْ بعـد.

عـدتُ متسـللًا إلى الملحـق، ولم تكـن أمـي قـد عـادت، وجـدت أبي يجلـس مكانـه تحـت الشـجرة العجـوز، وقـد مـلأت أوراقهـا الأرض، وأراحتنـي فكـرة أن المطـر قـد رواهـا، فأوراقهـا جفـت حتـى كادت تكـون بـلا أوراق.

أبي يجلـس هنـاك مطاطـأ الـرأس تثقلـه الخيبـة، كلـما تطلعـت إلى عينيـه رأيتـه يتأرجـح بـين النـدم والحـزن، تمنيـت لـو اسـتطعت التخفيـف عنـه، ونحيـت الفكـرة أمـام شـكوكي، إن الجُـرم يلتصـق بـه، واحـترتُ في أمـري واشـتد عزمـي لمعرفـة الحقيقـة..

فكـرت في التحـدث مـع أمـي، ووأدتُ الفكـرة في مهدهـا عنـد رؤيتـي لهـا تـأتي وقـد غمـر الطـين نصفهـا ولطـخ رأسـها، لا شـك أنهـا قـد سـقطت وهـي في طريقهـا تبحـث عنـي، أشـفقت عليهـا كثـيرًا، وانتظرتهـا لتهـدأ، ولكنهـا جلسـت تبكـي وهـي تطالـع المنـزل مـن شرفـة الملحـق، اقتربـت منهـا أعانقهـا وهـي تبكي بشـدة هامسـة مـن بـين نشـيج بكائهـا: ملعونـة البيـوت يـا نـور، ملعونـة.

ضممتُها أكثر وأنا أقول برفق: ما تبكيش خلاص.

رأيت أبي يقف قبالتي يشير لي باتباعه، بينما هي لم ترد التطلع له، وخبَّأتْ وجهها بين كفيها، أشفقت عليها وأردت لو تجاهلته مثلها، ولكني أطعته.

يسير أمامي منكس الرأس وبيننا خطوات، هتفت به: مش هتحكي لي فيه إيه؟ وليه أمي زعلانة منك كده؟

لم يرد، والمطر لا يتوقف عن الهطول، وقد تحولت الأرض إلى طين، عدت أهتف: طب ما كنا في البيت، ليه طلعنا في المطر ده؟ كده هنغرق ونتبهدل ونتعب.

جلس على مقعده تحت الشجرة، وقال محتجًّا: خلينا هنا، مش قادر أشوف أمك، عمالة تأوَّأ ليل ونهار لما فلقت مُخِّي.

قلت له: طب ما تحاول تهديها، أنت كمان سايبها تاكل في نفسها من ساعة ما رجعنا البلد.

أجابني: كاملة من زمان زي النار، بتاكل في نفسها وفي اللي حواليها.

قلت: مهما كان، ما تسيبهاش كده، ممكن تموت مننا.

رَد: مش هتموت، عمرها طويل دونًا عن كل الخلق.

تطلعت إليه بضيق، فأجاب نظرتي بنفاد صبر: هي اللي بدأت.

سالت بأهمية: بدأت إيه؟

نكس رأسه يفكر قبل أن يهم بقول شيء ما، لكن مواء القط جعله ينتفض، وتوجهت أنظاري إلى القط، كان ذاك القط الأسود نفسه، فهتفت: بس، أنت تاني؟ امشِ، أنا مش ناقصك.

سيبه...

قالها والدي، فسألته وأنا أتطلع إلى وجه القط: هو كان لجدي برضو؟

وأضفت وأنا أنتقل بالنظر لعيني أبي: ولا لأعمامي أو عيال أعمامي؟

تطلع إلى القط من خلفي، وقال: ليا.

عدت أتطلع إلى القط مجددًا أتحقق منه، لكنه اختفى، تجاهلته وعدت أساله: أنت ليه مش بتطلع بره البيت وتقابل أهل البلد؟

أشار بضيق وهو يتطلع خلفي: همِّلني.

كدتُ أعترض، لكني نظرتُ حيث ينظر فرأيتُ العمدة (بركات) وخلفه ظل لخمسة أو سبعة رجال، فهمستُ مفكرًا: فكرت إنهم مش جايين الليلة.

تجاوزني نحوهم، وابتعدت بإشارة منه، ونويت ألا أغادر، بل أراقبهم لأفهم ما طبيعة هذا النشاط كل ليلة، وابتعدت ثم اتبعتهم أتلصص على ما يفعلون.

دخلوا واحدًا تلو الآخر بعد أن فتح لهم أبي باب البوابة، وأغلقه قبل أن أستطيع رؤية شيء.

أسرعتُ نحو الاتجاه الآخر، لعلي أستطيع الدخول من فتحة الكلب، يحركني إصرار غريب مدفوع بعِناد شديد، ولكني رأيتُ ظلًا أسود يقف هناك، هنا قررت أن أعيد أمي إلى المنزل هاتفا: إيه اللي خرجك من البيت تاني يا أمي في المطر ده؟!

استدارت لي، وأسقطت حجابها أرضًا، فلم تكن هي، واتسعت عيناي...

***

٢

كان ضـوء المصبـاح الخافـت قـد أضـاء عـلى اسـتحياء، تتناثـر قطـرات المـاء عـلى رأسـه فتتقافـز إنارتـه، أقـترب إليهـا أحـاول رؤيتهـا جيـدًا...

بـدت كالتائهـة وأنـا أتطلـع إلى وجههـا الباكـي، وقـد سـال كحل عينيهـا، أسـألها بقلـق: أنـتِ إيـه الـلي جابك هنـا في الوقـت ده؟

قالـت بعصبيـه: مـا لكـش صالـح بيـا، أنـت إيـه الـلي مطلعـك في المطـر ومهمـل بيتكم؟

قلت: ما أنتِ كنتِ لطيفة الصبح، جرى لك إيه؟

قالت: عاود حِدا أمك، ما لكش صالح بيا.

قلت: وأنتِ إيه درَّاكِ بأمي؟

التقطت حجابها بسـخط وهـي تقول: أي واحدة تقلـق على عيّلها.

وركضت بعيدًا.

رددتُ بضيـق: عيّلهـا؟ أنـتِ شـايفاني عيّـل؟ روحـي ربنـا ياخـدك.

أصاب قولها كبريائي، فعقدت ذراعي أوجه وجهي كصفحة للمطر ليغسل المطر ضيقي، وانتبهتُ خلال هذا لنفس الشاب يجلس على حافة الجدار بالطابق الأخير بمنزلهم الذي يتكون من طابقين على بعد أمتار، وهو أقرب البيوت لبيت جدي.

أردتُ تجاهله عالمًا أنه لو استمر على شجاعته الليلة فسينزلق وسينكسر عنقه.

أقول بصوت مسموع سائم: هو ما فيش عاقل واحد في البلد دي بس؟ واحد بس يا رب؟

ووقفت تحت منزله أتطلع بانزعاج إلى الأعلى والمطر يصفعني، صائحًا به: يا عمنا انزل، أنت مش خايف على عمرك؟ إلهي يقصف عمرك.

التفت إليَّ ولم يهتم بي..

عدتُ أصيح: أنت لو وقعت والله حتى ممكن ما نلاقيش مستوصف في أم البلد دي نلحقك فيه.

تجاهلني وهو يطالع أوراقه.

هتفت به: بذمتك طالع تِذاكر في المطر دلوقتي؟ يا أخي ربنا ياخدك أنت كمان بجد.

أردت حقا تجاهله وخطوت بعيدًا، ولكني غيرت طريقي إلى بابه متمتماً باللعنات..

طرقته فلم يُجِبْ أحد، طرقته مرارًا..

وعدتُ أنظر له هاتفًا: يا عمنا هو أنت ساكن لوحدك ولا إيه؟ ما فيش حد يفتح بابكم ده أقول له يسحبك من قفاك؟

وهنا انفتح الباب بصرير قوي أخافني..

أزدرد لعابي بتوتر..

أردت الهروب.. لكن أهمني حال الفتى، فتشجعت.. جررت ساقيَّ وأنا أهتف مصفقًا: السلام عليكم..

لم يُجِبْ أحد، تقدمت بتردد..

كان الظلام حالكًا، توقفت أتطلع لعلي أرى شيئًا من الداخل، فقط سواد.. أهمس لنفسي: أكيد يعني النور قطع بسبب المطر على حظي المهبب.

تقدمت أكثر.. دخلت بخطوات متوترة.. وساقين ترتعشان.. وقد ابتلعني الظلام.. وهنا أُغلِقَ البابُ خلفي بقوة..

شهقتُ بذعر.. وتحسست كل شيء بالظلام.. وأنا أهتف مذعورًا: حد هنا؟ هو فيه حد هنا؟

انتفضتُ وجف حلقي.. أحسستُ أنني سأتبول على نفسي.. أقاوم الفكرة.. ضوء خافت ينير أعلى الدرج الخشبي

القديم.. فهمت أنه يدعوني لاتباعه.. لم يكن هناك مفر سواه، فركضت نحوه يطاردني الظلام، أرتمي في نهاية الضوء، أقف متسمرًا داخل دائرة الضوء التي بدأت تضيق وتضيق وتضيق، حتى أصبحت بقدر قدميّ.. لا أفهم.. لا أرى..

انتفضتُ لصوت.. إنه المذياع..

ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صو صو.. شاف القطة قال لها بس بس قالت له (نياااااو)..

كان المواء الأخير لقط حقيقي.. قط غاضب.. انتفضتُ وجحظتْ عيناي وأنا أتطلع إلى الظلام لعلي أرى شيئًا، وقلبي كجسدي ينتفض، والمذياع يعمل مجددًا، لكن بإيقاع بطيء بغيض مستفز:

ذاااااهبا الليييلوا طللللللعاااا الفجروووووو

والعصفوووووووور صووووووصوصووو.

صرخت: اقفل ده..

صمت فجأة وساد الصمت، ليرتفع فجأة صوت آخر.. موسيقى ربابة عذبة لكن الأجواء لم تكن كذلك، تعرق وجهي برغم البرد، وبدأت أسمع صوت أنفاسي المضطربة توافق العزف، توقفت الموسيقى فجأة، لتبدأ أخرى بنحيب معذب..

صحت وأنا أسدُّ أذنيَّ بجنون: اقفل الزفت الصوت ده وشغَّل النور، أنا مش شايف حاجة غير رجليَّا.

أغلق بالفعل، وساد الصمت، وكان للصمت رعب آخر، تجحظ عيناي بقوة نحو الظلام حولي، أفكر بالتحرك، أتساءل لِمَ أقفُ مقيدًا وكأنني مهدد بألا أفعل؟ أحاول التحرك، وفكرة تَقييدي بمكاني تطرق رأسي بغباء، هممت بالتحرك لكن الصوت ارتفع مجددًا:

"هي دي هي فرحة الدنيا دق يا قلبي غني يا عينيا"..

وأُعِيدَ بدوره المقطع ببطء وغلظة وكأنه احتضار:

"هييي ديي هيييي فرررررحة الدنيييا دققق يا قلبيييي غنييي يا عينيييا"..

بنفس اللحظة بدأ الضوء يصغر ويصغر، ويتحرك على جسدي ببطء، والأغنية تضعضع الباقي من تحملي، حتى أصبح الضوء نقطة بين حاجبيّ، قلبي يعلو ويهبط، أرفع مقلتيّ نحوها..

وهنا تلاشت تمامًا عند انفراج الباب أمامي.. تخرج منه شمعة مشتعلة تتقدم نحوي بالفراغ.. ارتعبتُ للفكرة.. كيف تطير الشمعة؟!

شـهقتُ عندمـا أظهـر ضوؤهـا وجهًـا مجعـدًا خـرج مـن الظلام.. أدركـتُ أن الشـمعة تحملهـا امـرأة عجـوز لم يظهـر منهـا شيء.. لَمْ أعِ تمامًـا إلا بعـد أن أنـارت الشـمعة مـا يكفـي لأرى عجـوزًا مُسـنَّةَ محنيـة الظهـر بطيئـة تلتحـف بالأسـود.. تطلعـتُ إليهـا بخـوف.. فتطلعـت إليّ بنفـور.. تعبـس فتزيـد التجاعيـد وجههـا نفـورًا، قالـت: جيـت تِذاكـر مـع زيـن؟ هـو قاعـد في الأوضـة فـوق، اسـتنى أندهولـك.

ظللـتُ أرقبهـا ومـا زال الرعـب باقيًـا في أوتـار صـوتي.. رأيتهـا تتحـرك كأرنبـة عجـوز أو سـلحفاة قبـل الاختبـاء والمـوت.. قلـتُ لهـا: وأنـتِ هتقـدري تطلعـي فـوق تندهيـه يـا حاجّـة؟

قالت بدون أن تنظر إلى وجهي: هخلي أخوه يناديه.

قلت: بس هو مش في الأوضة، هو قاعد على السطح.

تجاهلتنـي وهـي تصيـح بصـوت جهـوري قـوي ليـس لعجـوز أبـدًا: منصـووور.. نـادي أخـوك وانـزل.

والتفتـت إليّ بوجههـا العجـوز قائلـه بعجـز لم يكـن عليهـا منـذ ثـواني: منصـور الـلي بيقعـد عـلى الحيـط.

قلت وعقلي لا يستوعب ما يجري: آه، ما أنا أقصد منصور.

رمقتني بنظرة صامتة بدت فيها كالتمثال، قبل أن تعود لغرفتها وتترك لي المكان بظلمته، وقد أصبح خافت الضوء لبصيص متسلل من غرفتها.

سمعت أصوات أقدام كثيرة ليست لشخصين تنزل الدرج من الطابق الأعلى، فتجاهلتُ وقررتُ الذهاب، فهدفي فقط أن ينزل الشاب من موقعه المُميت..

لكني توقفتُ منتبهًا لصوت المذياع الذي انطلق يغني بصوت طفل دون موسيقى:

"أنا الزرزور الأخضر أخضر مَرَت أبويا دابحاني وأبويا يدلدل في لحمي الحامي وأختي عزيزة تلملم في عضامي"..

أقف على الدرج دون فهم، ولكني تجاهلته، وصوت الأقدام الكثيرة يقترب، وركضت أسبقها وأنزل سريعًا على الدرج، فجأة أوقفني شيء بجانبي برز من الظلام، وكان تمثالًا صغيرًا، ربما لطائر رأسه مفصول عن جسده، لم أتحقق من طبيعته، وكان يغني بصوته المذبوح:

"أنا الزرزور الأخضر أخضر مَرَت أبويا دابحاني وأبويا يدلدل في لحمي الحامي وأختي عزيزة تلملم في عضامي"..

لم أصدق ما رأيت..

ركضتُ نحو الباب وتركت المكان، وهرولتُ إلى الخارج، وحمدتُ الله أن مزلاج الباب انجرَّ واستطعتُ الخروج، فلَمْ يَعُدْ يعنيني البيت وأهله، وأقسمتُ ألا أعيدها، يكفيني عجائب أهل بيتي.

توقفتُ لألتقط أنفاسي، وتداعب أنفي رائحة شواء.. بل شيء يحترق..

تتبعتُ الرائحة، إنها آتية من جانب بيت العجوز، اقتربت.. نظرت.. أعماني الدخان المتصاعد.. فعدت أدراجي وركضت بعيدًا، وقد أغرق الماء الأرض.

تجاهلت كل الأصوات الغريبة من حولي، التي تستدعي الانتباه، حتى أصبحتُ أواجه بيت جدي بأسواره العالية التي تطرقها حبات المطر كالسهام.

هتفتُ بحيرة: حصل إيه لأهل البلد يا جدي؟! الكل كارهكم؟! الكل مجنون؟!

ضرب البرق المكان كسوط على ظهر عبد سجين.. انتفضت وضوء البرق يكشف لي وجه امراة بشارب ولحية.. تراجعتُ.. وأحسستُ في جسدي برجفة باردة.. همستُ بصوت مبحوح: عـلاء!!

رمقتني بنظرة عاجزة، وهي تهرول بعيدًا، تراجعت وابتعدت.

جذب انتباهي ضوء الكشاف الأبيض معلنًا عودتي، لكني وقفت وعدت ألقى نظرة نحو أعلى منزل الشاب وقد ترك أعلاه، وأعيد النظر لمكان الفتاة ذات الكحل، وأنظر لشجرة أبي، ثم الطريق التي اختفت فيها علاء، الكل غادر الليلة، وصمتت الأصوات كلها مرة واحدة، ولَمْ أعُدْ أفهم شيئًا. كنت قد أحسست بالتيه، وعدتُ إلى البيت متجاهلاً فكرة التلصص ليوم آخر.

دخلتُ الملحق وقد أُضيءَ الضوء الأحمر مجددًا، وأغلقت أمي باب غرفتها عليها، حاولت الدخول لكن بكاءها غصني، فتراجعتُ وانطويتُ على الأريكة أسأل نفسي سؤالًا واحدًا قبل أن أغرق في النوم:

"هو أنا ليه لحد دلوقتي ما سمعتش ولا أذان بيأذن في البلد دي؟"

وغبتُ في نوم عميق..

ولَمْ أنتبه لذلك القط الذي يقف عند نافذتي، وقد تشكَّل ظله في هيئة إنسان!!

❋❋❋

صراخ وبكاء وأصوات متداخلة، يعلوها صوت نشيج وصراخ، لكنه ليس حلماً..

"والنبي لأ، سيبوني حرام عليكم"..

تسلل الصراخ المتوسل لأذنيّ.. عقدتُ حاجبَيَّ بضيق وأنا أترك أريكتي وأذهب للتحرِّي..

خطوتُ بحذر أتتبع صوت الصراخ، إنها نفس الفتاه التي يقيدها ثلاثة من الشباب، بدت لي ملامحهم كملامح بقر البحر، وأنا أحاول الاستيعاب، وأخيرًا تراجعت وأنا أتذكر أنها كما قالوا.. (ملبوسة)..

أتطلع في أرجاء المكان باحثًا عن أمي، وكالعادة لا صوت لها..

عدت إلى الملحق وطرقت بابها ولكنها لَمْ تُجِبْ، وبحثت عن والدي بالخارج لكنه كذلك لم يكن هناك..

تمتمتُ بضجر: يمكن راحوا يزوروا أمواتهم على الصبح بجِمله الكآبة.

وتوقفتُ أفكر لثواني في خطتي لليوم، واستقر عقلي على فكرة كان رأسها (إمام مسجد البلد)..

اختطفتُ قبعتي من الخزانة، وكالعادة لَمْ أُبالِ بسقوط بقية ما بالخزانة، وأسرعتُ إلى الخارج، وكانت أمي تائهة كالعادة تجر أذيال وشاحها من الأرض..

أردت أن أواسيها، ولكن غصَّني أن حزنها على أخي جعلها تتجاهل أن لها ابنًا آخر يحيا بجانبها، فلَمْ تعُدْ تبالي بي، تجاوزتني بلا مبالاة وتركتها بحزن..

أحسست أني بخفة الريشة، ولكن روحي ثقيلة، يهزمني شعور الضياع فأستسلم أخيرًا، أرتكن بجانب الشجيرات على حافة القناة القذرة..

"دِسّني بسرعة"..

جذب انتباهي صوت صغير متلهف، نظرتُ خلفي فإذا بفتاة في الثامنة أو أكثر، بعيون صغيرة، ووجهها أبيض، وشعرها جاف ثائر قصير مجدول لضفيرة بعد عقده لخصلتين من الأمام، تنتهي بضفيرتها الهائشه المذيلة بشريط أحمر، ترتدي فستانًا قماشيًا أصفر بسيطًا مصنوعًا باليد لا إضافات فيه، فقط ياقة بيضاء في الرقبة وكسيرات عند الوسط، وبنطالًا أبيض قصيرًا يُظهِر نحافة ساقيها.

عادت تتلهف: دِسّني بسرعة بسرعة..

فهمتُ أنها تريدني أن أخبئها، فسألتها: أخبيكِ ليه؟

أجابت: عشان هيمسكوني.

سألتها: مين هم دول اللي هيمسكوكِ؟

قالت: يا بوي دِسّني، العيال جايين يقبصوني.

وانتبهتُ لقدوم آخر، فهمست متلهفة بجنون: دِسّني يلَّا.

أشرتُ لها خلف الشجيرات على حافة القناة، وبالفعل غمرتها أوراقها فلَمْ يرَها الطفل الذي جاء يبحث لاهثًا بجلبابه القصير الرث وشعره الأشعث وأسنانه الواسعة..

سألني: زنا هنا؟

قلت: إيه؟ مين ده اللي زنا؟

أجابني: البِت زنا زت هنا؟

قلت: أهاااا تقصد جنى..

قال: آه، زنا ادَّستْ هنا؟

نفيت قائلا: لأ، ما حدش جه هنا.

ضم شفتيه في حيرة، واستدار مغادرًا، ولكنه توقف ليتطلع إليَّ..

ثم قال: تيزي تلعب معانا؟

ضحكتُ وأشرتُ له بالرفض، وأنا أقول لنفسي: أخيرًا لقيت حازة لطيفة في البلد دي..

عادت الصغيرة تطل وهي تهمس بحذر: عجايبي مشا؟

سألتها متعجبًا: هو اسمه عجايبي؟

هتفت منزعجة بلهفة: يا بوي مشا وله؟

طمأنتها: أيوة مشي، طار ناحية الزراعات.

خرجت وهي تنظر للتأكد ضاحكة، وقالت: حقة دلوقتي هيتكسف حتة دين كسفة.

قلت: ليه يتكسف؟ دي لعبة!

بدا أنها لَمْ تفهم، ولكنها أفرغت ما بجعبتها وهي تردف: الواد عجايبي اسمه بكر، بس بنقول عليه عجايبي علشان فيه فللة في أسنانه زي عجايبي النصراني بتاع الدقيق، واد لطخ عاكر يقول أنا أقدر أقبص على كل العيال، ويقول قبصت حرامي عَمْنوِّل، فشَّار قوي متأنزح زي اللي خلفوه، لكان هو بيعملها على نفسه لما عدينا نهارهيتي عند كلب بيت إسماعيل، خلیناه مغمض ونوفل جري وادسَّا، وطايع كمان وشحاتة عشان نعاود ونعجنه.

تسـمرتُ فاغـرًا فاهـي غـير مسـتوعب لمـا سردتـه في نَفَـس واحـد، وتجـاوزتُ بتعجـب قائـلاً: وأنـتِ ليـه بتلعبـي مـع أولاد؟ مـا تلعبـي مـع بنـات زيـك، بـصي يـا جنـى، فيـه عرايـس ينفـع تلعبـي بيهـا أحسـن مـن الجـري مـع الأولاد.

همـت بالمغـادرة وهـي تعـترض قائلـة: مـا ليكِـش صالـح، حقـة أنـت لطـخ أنـت كـمان.

هتفت: خدي يا بِت!

لكنهـا هاجمتنـي بنفـور قائلـة: بِـت أمـا تبتَّـك وكلـب أمـا يقندلـك بخلقاتـك الـلي زي العبيـط.

فاجأتْنِـي فتراجعـتُ قائـلاً: خلقـاتي؟ طـب بـس بـس روحـي مطـرح مـا تروحـي أنـتِ هتردحـي لي.

رمقتني بنظرة حاقدة، وهرولَتْ كالدجاجة.

وقفـتُ أتمتـم بـشيء مـن الذهـول: البِـت دي أمـا تكـبر هتبقـي مُجرِمـة.

وعاودتنـي الابتسـامة.. ابتسـامة لم أسـتطع إخفاءهـا دفعتنـي للتحـرك، وقـد تبـدد ثقـل روحـي، وشرعـتُ أنظـر إلى حيـث ركضَـتْ.

❋❋❋

رأيتُ اليوم الناس، القليل منهم، ولكن مقارنةً بيوم السبت فقد رأيتُ الكثير، بالعادة القرية هادئة، القليل من السكان، سكانها ككل القرى والنجوع، أراهم يهبون لأعمالهم، هذه تحمل (القُفَّة) فوق رأسها وهي تعض طرف حجابها لتحكم غطاء وجهها، وآخر يجرُّ عربته، وهناك يجلسون قبالة بعضهم حيث يقومون بتسوية جريد النخل لصناعة الأقفاص، وتلك تقطع عود فرع البلح (الجرباح) لتصنع المكانس الجرباح، تقسم الفرع بالمنجل بحرفية، وتعيد تكرار هذا حتى يصبح الفرع أعوادًا رفيعة، ثم تربطها وتنقعها في الماء بجانبها، ثم تلتقط الأخرى التي نُقِعَتْ بالإناء وتلويها نصفين وتحزمها بخيط أبيض، وتمرر الخيط و تلفها بين يديها بشكل مذهل لتقوم بتسويتها أخيرًا من أطرافها بالمنجل، لتصبح أخيرًا مكنسة يستخدمها كل أهالي البلدة، طمأنني وجودهم، وأسعدني رؤية الصغار يركضون خلف بعضهم كأنهم في سباق، يبدو أن اللعبة تغيرت، أو قررت الشريرة الصغيرة جنى عجنه كما كانت تقول.

أُوقِفُ أحدَ المارة قائلًا: لو سمحت..

لم يلتفت إليَّ.. فسببته..

اقتربتُ من جماعة العمال قائلًا: السلام عليكم

لَمْ يُجِبْنِي أحد، فعلى ما يبدو أن هذا النجع لا أحد فيه يملك شيئًا من ثقافة احترام الغير..

لَمْ أهتم وأنا أسألهم: هو فين الجامع هنا؟ عايز أسأل إمام الجامع على حاجة كده.

لم يتطلع إليَّ أحد منهم، فقط يعملون كأنهم آلات، أمرر نظري بينهم لعلي أجد منهم ردَّة فعل، ولكنهم تعاملوا وكأنني لا أُرَى، أحرجني تجاهلهم..

جرت الدماء في وجهي حين أجابني ثامنهم أو رئيسهم: عايزه ليه؟

أردت أن أتصرف مثل زنا وأقول: "ماليكِش صالح"، لكني قدرت رده بينما لم يفعل الآخرون..

أجبْتُه: أصل أنا ليا فترة راجع البلد ومش عارف فين الجامع.

قام من جلسته فتناثرت حوله بقايا نترات الجريد التي كانت في حجره، ليقول بصوت فخم: عادلك.

وتقدمَني بخطوات جبل وليس رجل..

أرى ضخامة جسده تسد رؤيتي للطريق، كغيمة ضخمة لا ترى من خلفها نور السماء، حتى وصلنا..

أنظـر إلى مـكان لا أتذكـر رؤيتـه قبـلاً، تقدمـت عنـه لتتنفـس عينـاي، ولكنهـا اختنقـت برؤيـة الـزرع قـد جـف حـولي كحـال الأرض بلونهـا الكئيـب، وهـي تمتلـئ بكثبـان الأتربـة والأكيـاس التـي أذابتهـا حـرارة الشـمس وبقايـا الأعـواد والعلـب، وقـماش ممـزق وقشـور فاكهـه جفـت، وهنـاك رؤوس كشـواهد قبـور.

أشـار قائـلاً بصـوت غليـظ: الطريـق كانـت متقندلـة، عَمْنَـوِّل عملـوا جـسر، عـدِّي الجـسر هتلاقـي الجامـع هنـاك جنـب مقـام الشـيخ حسـن.

أثارني اهتمامي قوله، فرددتُ وراءه: مقام الشيخ حسن؟

واستدرت لأسأله مستفسرًا لكنه كان قد ذهب..

تقدمـتُ أتطلـع نحـو كل شيء، بـدا المـكان خاليًـا مـن النـاس، والحـر شـديد لا يوجـد نسـمة هـواء، ربـما لأن المـكان خـالٍ مـن الـزرع والشـجر، حتـى الطيـور غـادرت..

أسرعـتُ الخُطَـى لعـلي أجـد الشـيخ هنـاك لأشـاركه اللعنـات عـلى أهـل النجـع، فـلا شـك أن حالهـم هـذا بسـبب هجـران المسـجد.

مـررتُ بممـر طينـي جـاف، فتمتمـتُ بتعجـب: بقـى هـو ده الجـسر؟! يـا أخـي ربنـا يسـامحك.

تجاوزتـه بخطـوات، وكان في نهايتـه سـاحة كبـيرة بهـا شـجرة مظللـة، أكـبر مـن شـجرة أبي العجـوز، وتحتهـا سرائـر مـن جرائـد النخـل الجـاف صُنِعـت للجلـوس، بجانبهـا هيـكل مـن الطـين مسـتطيل الشـكل، في قلبـه زيـران للـماء.

اقتربـتُ مـن الغرفـة الطينيـة الملونـة بالأخـضر، وقـد تقـشر طينهـا الملـون، وهتفـت: يـا شـيخ..

وهمسـت لنفـسي بريبـة: إيـه دخـل الضريـح في الجامـع؟ هـو الراجـل ده جابنـي هنـا عشـان يتوِّهنـي؟ ولا يكـون عايـز يـسرق أعضائـي؟ ولا يكـون فاكـرني عبيـط زي مـا قالـت زنـا؟

ونسـيت همـي وابتسـمت عنـد ذكرهـا، واقتربـت لأطـل داخـل الغرفـة الخـضراء، فوجـدت كثـيرًا مـن أحذيـة النـاس أمـام عتبـة الغرفـة التـي يعلـو مدخلهـا خشـبة ارابيسـك مثبتـة، تخطيتهـا للنظـر إلى الداخـل، لكنـي توقفـت أسـترق السـمع..

صوت امرأة تهمس متوسلة:

"يـا شـيخ حسـن، قـول لـه يشـفع لي، غلطتـي والله، كاتبـين كتابنا بـره النجع ووعدني نشـهروه، والله ولـدي واد حلال، لـو عرفوا كانوا عطلـوا لنـا الخلفـة، وعـلى حطـة يـدك في السر حصـل، وبقـى لواحد منيهـم نبتة، بس الله يجـازي أولاد الحرام اللي خلونا كِيـف الحرامية"..

حاولتُ رؤيتها، فتسللتُ إلى الداخل..

كانت غرفة ملونة بنفس اللون الأخضر الداكن، مقعرة السقف، يتوسطها مجسم ضخم من الخشب المفرغ، يزينه عناقيد من زهور الزينة، بداخله جثمان رأسه كالحصان، بدا كأنه مصنوع من الجير ثم غُطِّي بالأقمشة الخضراء، في أطرافها خيط ذهبي ملون، توقفت أطيل النظر لأحاول فهم ما أراه، ظللتُ أتطلع إلى تفاصيله الغريبة، وبدا لي أنه يتحرك..

"أنت جاي هنا ليه؟"

انتفضتُ لصوت من خلفي، فاستقمت وأنا أنظر للحيته الطويلة ووجهه الممتلئ..

أجبتُ بارتباك: أنا سمعت صوت واحدة كانت بتبكي و.. و.. أنا جاي أدور على إمام الجامع بتاع البلد..

ضاقت عيناه تحت حاجبيه الكثين، وهو يسأل: وعايز إيه؟

سألته: أنت الإمام؟

هتف بحدة: الزم أدبك! اسمها حضرتك!

أطعتُه.. وازدردتُ لعابي بصعوبة قائلاً بخضوع: حضرتك الإمام؟

تجاوزني واقترب من الضريح وهو يتمتم ببعض الكلمات، وأنهاها بنداء:

"يا سيدنا يا حسن"..

تمتمتُ باستغراب: سيدنا الحسن؟!

تطلع إليَّ، وقال بوجه مغاير: قلت لي جاي ليه؟ خير؟

أجبته مستسلمًا: خير يا شيخ، بس أنا لسه جاي من سفر وتايه، مش عارف حتى مكان الجامع.

قال: اسأل الشيخ طاهر.

سألتُه: هو حضرتك مش إمام الجامع؟

فكرَّر: اسأل الشيخ طاهر.

سألته: وهو أنت مين؟ أقصد حضرتك مين؟

مضى إلى الخارج فحاولتُ اللحاق به لكن لم أجِدْه، ولكني وجدتُ ما تمنيت..

زنا!!

أسرعت نحوها بلهفة وأنا أتنفس بهجة، قائلًا:

أنتِ إيه اللي جابك هنا؟ لتكوني جاية تستخبي تاني..

أجابت ببساطة:

أنا مروَّحة بيتنا.

سألتها بدهشه: أنتِ بيتك هنا؟

أشارت بطول ذراعها قائلة: شايف البيت اللي هناك ده؟

أومأتُ برأسي، فأردفَتْ: هنكة جنبية الطاحونة، وهنكهيتي المسطاح..

سألت: وفين بيتكم؟

أجابت: أبلك هتلاقيه.

توهمتُ أني فهمت، تطلعتُ بغباء وأنا أسألها: فين أبلك دي؟

أجابت: جنب الشجرة المباركة.

همست مردِّدًا بتعجب: المباركة؟

سارتْ، واتبعتُها كما أشارت كالأبله، وهي تثرثر:

تعال أوريها لك، أساسًا ناس البلد كلهم بييجوا يوم الجمعة يعوموا ويطلعوا يتلونوا بدمها علشان تشفيهم.

سألتها: الشجرة؟

ردَّتْ: أيوة.

وتوقفتْ تواجهني: كنَّك مجيتش قبل كده.

نفيت قائلًا: مش فاكر إنى جيت.

تعجبَتْ، ثم علقَتْ: حقة أبوك وأمك لطخين.

بلعتُ الإساءة هامسًا: ماشي شكرًا.

سِرْنا في منحدر طويل، ثم ارتفع لننزل مجددًا لأرى النيل أخيرًا، كان السكون عنوان المكان، والمراكب ترتكن في إهمال بجانب بعضها، والعشب غطى السطح من الماء.

سألتها: هنا بيعوموا؟

قالت وهي تشير بعيدًا: أبلك مَرَة.

هنا فهمت معنى كلمة (أبلك)، إنها إشارة لشيء بعيد، عندما رأيت امرأة على بعد أمتار، تنزل الماء وهي تحمل طفلها بكفيها من صدر قميصه.

اتسعت عيناي وهي تسقطه بالماء فجأة كحزمة جرجير ثم تخرجه، وتكرر العملية بشكل خاطف،

صحتُ مذعورًا: دي بتغرَّقه!!

قالت جنى ببساطة: امسها بتطلع الضرعة (الخضة)..

فهمت أنها تقصد (اسمها بتطلع له الخضة)، وهي عمليه يقوم بها نساء النجع لخض الطفل كي لإخراج الهلع منه! ولا شك أنه يخرج من الهلع ليدخل في الجنون!

لَمْ أصدق، وقلتُ بذهول: الولد هيشنق ويموت!

هتفتْ معترضة: لأ، هتطلع الضرعة وهيتخن ويبقي عَفِي.

وراقبنا المرأة وهي تخرج من الماء، ثم تسند الطفل أرضًا لتنزع ملابسه وتضع فيها رغيف خبز كبيرًا (عيش شمسي) وتقرأ بعض الكلمات عليها، ثم ترميها بالماء والرغيف داخلها ليلتقمها الماء سريعًا.

طالعتها بدهشة وهي تحتضن الصغير العاري، لتنضم إلى مجموعة الناس الذين التفوا حول الشجرة الضخمة هناك، وأخذوا يلتصقون بها ويأخذون من صمغها ويلطخون جراحهم ووجوههم.

تقول جنى مُجيبة نظراتي المتسائلة نحو الشجرة: أي حتة واجعاك حط منها على الوجع هيُشفى، شوف لو فين مجروح هيلم الجرح.

وأشارت على وجهها ورأسها وذراعيها وهي تضيف بثقة: عَمْنَوِّل طلع لي مسامير وحطيت من دمها وراق.

عدت أتطلع حيث المرأة والولد، فوجدتهم قد اختفوا..

قلتُ في أسف: بس برضه الولد كان ممكن يموت.

قالت: لو مات هيدفنوه تحت الشيخ حسن علشان يتبارك.

قلت في دهشة: يتبارك؟!

لم تُجْب، فالتفتُّ أبحث عنها، كانت قد اختفت بدورها، فتأفَّفتُ ونظرتُ خلفي، وهتفتُ حين وجدتها: افتكرتك مشيتِ.

أشارت لي بالاقتراب وهي تجلس القرفصاء تحت نخلة عالية تضم كلبًا صغيرًا مربوطًا بحبل بالنخلة بين ذراعيها الصغيرتين.

قالت بمحبة: ده كلبي بجورة.

اقتربت قائلًا: حلو اسمه، الولا صاحبك هيناديه بزورة.

قالت بحماس: ما أنا سرقته منه أصلًا، أخدت الكلب من أمه بعد ما ولدته، والكلبة بنت الكلبة كانت هتجرَّسني وهي بتهوهو على عيالها.

رمقتُها بنظرة متعجبة وأنا أقول: أنتِ شريرة جدًا يا جنى.

قالت بلا مبالاة: ما ليكِش صالح.

تمتمتُ باستسلام: طيِّب.

رفعتْ أحد حاجبيها وهي ترمقني بشك، قائلة: كنت بتدور على إيه أصلاً؟ لتكون جاي تسرق حاجة؟ والله أجرَّسك.

قلت: اهدي يا ست جنى، أنا بدور على الشيخ.

قالت: أبويا حراجي؟

قلت: أنتِ بنت شيخ الجامع؟

قالت: لأ بنت حراجي، أبويا أساسًا ما بيصليش.

قلت: أومال إزاي شيخ؟

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

قلت: لأ بجد بسأل: إزاي شيخ وما بيصليش؟

أجابت باعتزاز: أبويا بيطلع العفريت.

قلت لها: أها دجَّال يعني.

قالت: يعني إيه دجَّال؟

قلت: يعني مخاوي.

هاجمتني قائلة: جاك خَوَت يِخْوِتَك أنت وسلسالك ودرية ناسك كلهم.

أردتُ حملها وإلقاءها في النيل كما فعلت تلك المرأة مع رغيف الخبز، ولكني مرَّرتُ الفكرة سريعًا بحجة أنها مجرد طفلة صغيرة، صغيرة ولكن ليست بريئة.

تنهدتُ قائلًا: تسلمي.

وعُدْتُ أتطلع إلى الماء الراكد، وأنا أتمتم بغناء: أنا الزرزور الأخضر أخضر..

"مَرَت أبويا دابحاني وأبويا يلدل في لحمي الحامي"

وجدتُ جنى تكمل وهي تقف بمحاذاتي..

سألت باهتمام: أنتِ عارفاها؟

قالت ببلاهة: النجع كله عارفها.

سألتُها باهتمام: إيه الموضوع؟ أقصد دي أغنيه ولا إيه؟ أنا سمعتها في بيت الحاجَّة تماضر، الست اللي وشها زي حلاوة المشبك دي، وشفت تمثال رأسه مكسور وحاجة كده ما فهمتش.

ضحكَتْ وهي تطالعني بنظرة عدم تصديق، ثم قالت:

مخلول.. يا بوي دي حكاية مش أغنيه، سِتِّي حليمة قالت لي إنه فيه راجل اتجوز بعد ما مَرَته ماتت، وكان معاه بِت

وواد، مَرَتـه الجديـدة بعتـت الـواد والبـت يملـوا العجـان بالليـل مـن البحـر هنـا عندينـا، يعنـي حدانـا في الملاحـة، وهـي أساسًـا قاصـدة يتوهـوا أو تاكلهـم الديابـة..

قاطعتُها بتوتر: هو فيه ديابة هنا؟

تأفَّفَتْ: يـا بـوي مـا تقاطعنيـش.. دي قصـة.. طـب أعيـد تـاني حجاكـم الله..

سألتُها: يعني إيه حجاكم الله؟

قالت بنفاد صبر: تاكل ناسك عاد..

قلت: أنتِ بتشتميني؟

زمجرَتْ وهي تضم شفتيها، فقلتُ بأدب: حجانا الله، كملي.

أكملت:

المهـم رجعـوا سُـلَام، فالمَـرَة اضايقـت، كانـت عايزاهـم يغرقـوا ومـا يرجعـوش، فقامـت دبحـت الـواد وقـادت عليـه الكانـون، وهـو جـوه الماجـور عيَّطِـت عـلي أختـه وقالـت لهـا قِيـدي تحـت الـوكل عبـال مـا أبـوكِ ييجـي يتغـدى، قعـدت البـت القرشـاهم تِقيـد وتعقـط جـوه الكانـون بالقـش والوقيـد والميـة تغـلي وتبقبـق، حتـى الغطـا اترفـع مـن البقبقـة، والبـت بصِّـت جـوه الماجـور لَقِـت صُبـاع أخوهـا مدلـدل جـوه الميـة الـلي عـم تغـلي، قعَـدِت تبكـي،

ومـا قدرتـش تحكـي لأبوهـا خافـت مـن مَـرَت أبوهـا، فأبوهـا لمـا جـه قعـد يـأكل طفسـان وهـو مـش عـارف إنـه بيـاكل في ولـده، والبِـت تلـم في عضـم أخوهـا، فجـه الغـراب وقعـد يغنـي

"أنـا الـزرزور الأخـضر أخـضر مَـرَت أبويـا دابحـاني وأبويـا يلـدل في لحمـي الحامـي وأختـي عزيـزة تلملـم في عضامـي"

فعرف أبوها وقام دبح مَرَته وأكلها.

قلـتُ بإشـارة مسـتأذنًا للحديـث: بغـض النظـر عـن إنـه غـراب وبيقـول عـلى نفسـه عصفـور أخـضر، لكـن إزاي أبـوه مـا لاحظـش إنـه بيـاكل إنسـان مـن عضمـه الـلي بتلمـه عزيـزة أختـه المتخلفـة؟

ساد الصمت لثواني ظننتُها اقتنعت فيها بحُجَّتِي..

ولكنها قالت: على فكرة أنت قليل الأدب.

بدهشة سألتها: إيه ده؟

أضافَـتْ بتحـدٍّ: مـش هحكـي لـك قصـة سـليمة اللئيمـة الـلي حطـت بِـت جارتهـا في الفـرن بعـد مـا جرَّسِـتها لمـا بدلـت عقدهـا الدهـب بقـشرة.

قلـت لهـا: جنـى هـو أنـتِ كل قصـص الطفولـة عنـدك مشـوهة ليـه؟

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

وشهقَتْ فجأة وكأنها تذكرت أمرًا..

هتفَتْ بتعجل: أنا مروَّحة، تلاقي أمي مستنياني بقرن الشطة علشان تلدلدني، يا مراري يا حزوني.

هتفتُ بتشفٍّ: تستاهلي..

هتفَتْ وهي تركض: ما ليكِش صالح.

وفرَّتْ هاربة، وأنا أبتسم لها نفس الابتسامة الساكنة، واستدرتُ عائدًا وقد فقدتُ رغبتي في إيجاد الإمام..

سلكتُ نفس الطريق الذي أتيتُ منه، وأنا أنظر للزيرين اللذَيْن طفا ماؤهما على فخارهما، وضحكتُ من ربط الكوب بخيط في أذن الزير..

عندها تذكرتُ جنى، فحدثتُ نفسي قائلاً: أكيد هيربطوها، دي سرقت الكلب من أمه.

ولَمْ أبالِ بتلصص الشيخ حراجي من نافذة الضريح، وعدتُ أدراجي وقد منحتْنِي الصغيرة طاقة كافية من البهجة عزمتُ على ألا أعكرها.

ولكن توقفتُ فجأة.. صوت صراخ طفل..

تطلعتُ نحو الصوت.. ثمَّة امرأة تندَسُّ بين المقابر..

ركضت نحوها، ربما تحتاج إلى المساعدة..

صعقتُ عند رؤية الرضيع داخل مربع الدفن

(مربع الدفن: متر مربع محفور بالأرض، يحفر أحد جانبيه عند الدفن لتنزل منه سلالم إلى القبر، وهو عبارة عن غرفة تحت الأرض، وهوشكل القبور في النجع)..

صرخت: إزَّاي وقعتيه كده؟!

قالت بهدوء: سيبه، خلِّي الشر يطلع منه، هو عيان.

قلتُ: أنتِ مجنونة، الشمس حامية، الولد هيموت، أنتِ إزَّاي جالك قلب ترميه كده؟!

أبعدتني بكفيها وهي تقول باقتناع: ما رميتوش، عاود لطريقك وسيب الشمس تشفيه، لو شفيته ليه الحياة، لو مات ما لوش دنيا.

وتراجعَتْ تتربع بجانب القبر وتنظر إليه بصمت، بينما الصغير قد فُزِعَ من الذعر والحرارة باكيًا بصراخ شديد.

شعرتُ بالعجز.. وغادرتُ غاضبًا..

عـدتُ ألعـن النجـع وأهلـه، كانـت الشـمس قـد انحنـت إلى الغـروب، اقتربـتُ مـن بيـت جـدي الـذي لا يقـل ريبـة عـن باقـي النجـع، لم أهتـم وتجاوزتُـه إلى الملحـق، دفعـتُ البـاب سـائمًا..

استقبلتْنِي أمي بهتافها: أنت جيت يا نور...

أشرتُ لهـا: سـيبيني في حـالي دلوقتـي، خُلْقِـي ضـاق مـن كل حاجـة، عايـز أنـام.

ودخلـتُ حيـث أنـام، وأحـداث اليـوم تغصنـي، بينـما تـأتي موجـة جنـى لتمحـو كل الغصـة.

اسـتطعتُ النـوم بابتسـامة خالصـة، متجاهـلاً كل الأصـوات الغريبـة مـن حـولي، والتـي بـدأت في العمـل.

مرت الساعات...

صـوت يمامـة قلقـة، بـل شـديدة القلـق، فتحـتُ عينـيَّ فجـأة لأركـز في الصـوت.. رأسي يـردد: يمامـة؟!

فمنذ قدومي لم أرَ طائرًا أو حيوانًا..

اتبعـتُ الصـوت، كان الفجـر أو قبلـه لا أعلـم، فـلا يوجـد قـرآن للفجـر، لكـن القمـر كان قرصًـا منـيرًا سـاطعًا.

نظرتُ من نافذتي، كان الصوت واضحًا، تنهدت من أعماقي واسترخيت وقررت العودة إلى فراشي، لكني توقفتُ حين رأيت كتلة سوداء تتحرك تحت ضوء القمر المضيء الليلة، حاولت الرؤية فقفزت من نافذتي بفضول عارم، وعقلي يصر أنني رأيت هذه الكتلة من قبل..

أقترب حتى ظهر وجهها لي، إنها العجوز التي كانت بالبيت القريب، لكن عمَّن تبحث؟ لا بد أنها فقدت شيئًا أو ابنها أو حفيدها.

أشفقتُ عليها وقررتُ مساعدتها، وحين اقتربت اختبأت فجأة..

لقد دخلت المرأة بيت جدي!!

كيف دخلت؟ من أدخلها؟ كيف استطاعت؟

هرعت نحو الجهة التي دخلت منها وجدت الباب موصدًا بإحكام تحت كثبان العنب الجاف، أحسست بالغباء، ووقفت ألعن البيت وأنا أستند إلى جانب الباب، وفوجئت بالعمدة يخرج ليستقبل خيالًا قادمًا من بعيد.. خيال التقيتُه صباح اليوم..

الشيخ الدجال!!

اختبأتُ بمحازاة الباب تحت فرع جاف من باقي كثبان العنب أحاول الفهم، لا بد أنهم لصوص يخدعون والدي،

فالدجـال سـارق كابنتـه..

إنـه يدعـوه إلى الداخـل.. أتسـاءل عـن والـدي بلهفـة، وأبحـث عنـه في أرجـاء المـكان..

أركض هنا وهناك.. أنادي بصوت خفيض..

يـا بـا.. يـا بـا أنـت فـين؟؟ الدجـال حراجـي جـه في أنصـاص الليـالي..

وحدثت نفسي محبطًا: قال يعني أنت بتجيبهم في النهار..

ووقفت في حيرة أفكر:

إيـه علاقتـك بالنصـاب ده يـا بـا؟ وليـه جايبـه؟ بتتفقـوا عـلى إيـه؟ ولا اتفقتـم عـلى إيـه وبتقسـموه دلوقتـي؟ وليـه أمـي مقاطعاكـم ومقاطعـه البيـت؟

تطلعت إلى المنزل من بعيد بأسف: عملت فيهم إيه؟

اكتسـى وجهـي بحـزن عـارم.. وجلسـت أضـم ركبتـي إلى صـدري تحـت شـجرة أبي..

أضيف بحزن:

أعتقـد ربنـا دوَّقـك مـن نفـس الـكأس.. وخَـدْ أكـتر عيِّـل بتحبـوه.. ربنـا يرحمـك يـا صالـح.

وتنهـدت مـن أعماقـى أرمـش محـاولا الرؤيـة.. ولكـن النعـاس غلبنـي مـكاني تحـت الشـجرة فلـم أنتبـه لأي شيء، ولا حتـى للقـط الأسـود والمئـات منـه مـن حـولي يتحلقـون بدائـرة حـول موضعـي.

***

٣

سحب وطرق.. سحب وطرق.. سحب وطرق..

استيقظت أحاول الرؤية.. بدا ضباب عارم.. أشكال متداخلة ملونة.. عيون صغيرة.. أنف منفوش.. فم ملتوٍ.. شعر ثائر.. ضفيرة مربوطة بشريط أحمر.. فستان أصفر..

اتضحت الرؤية أخيرًا وأنا أتطلع إلى ذلك الوجه المتضايق، وصاحبته عاقدة الذراعين تقول بعصبية: كنَّك مخلول..

اعتدلت جالسًا لتعتدل صورتها.. أمسح على وجهي وهي تضيف: نعسان زي النعجة من الصبح..

فركت عينيَّ وأنا أقول: وليه الغلط يا جنى؟ يا لطيفة..

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

قلت: هو أي مليكِش صالح وخلاص؟

استعجلتْني بإشارة من يدها، وقالت: هِم بينا..

سألتها وأنا أتربع أرضًا: على فين؟

اغتاظت مني وهتفَتْ: حقَّة ده مرار طافح..

سايرتها: هتوديني فين طيب؟

قالت بحماس:عارف الشيخ أبو عسران؟

أجبتُ بملل: لأ ما أعرفوش.

هتفَتْ باستنكار: كِيف؟ ده النهاردة الخميس.. العيال كلهم في أب عسران..

سألتُها: بيعملوا إيه هناك؟

طالعتني بدهشة، وقالت: أبو عسران ده الناس كلها عارفاه..

قلت: زي الشيخ حسن كده..

أضافت: بس أبو عسران فيه كحريتة.

تساءلت: كحريت إيه؟

اتسعت ابتسامتها، وقالت بشغف: هوريها لك.

سرتُ معها باتجاه البلدة وأنا ما زلتُ لا أدري كيف وجدَتْنِي، لكني سعيد بصحبتها، وهي تثرثر:

أبو عسران أساسًا عند الجبابين، الناس كوووهم بييجوا من بلاد كتيرة عشان ياخدوا البركة ويتفسحوا..

قلت ساخرًا: يتفسحوا آه أومال إيه.. رايحين الأرجنتين..

تجاهلت تعليقي وهي تردف: اللي عايزة تتجوز واللي عايزة تحمل واللي عايزة تِوْلد واللي عايز يروق واللي عايز يبقى معاه فلوس، ده ممكن يخليك تطير..

قلت ساخرًا: لا والنبي؟!

ردَّتْ: وحياة الكعبة.

سألتها بنفس السخرية: وإيه كمان؟

شرعت تشرح بحماس واعتزاز:

الناس تاجيه من كافة بلاد، يوم الخميس أنا والعيال بنروحوا عشان الحمص والترمس والملبن والفول والسمسمية، يوم عسل بنستنوه..

قلت: أيوة إيه إنجاز أبو عسران عشان المهرجان ده كله؟

بدا أنها لم تفهم سؤالي، ولكنها قالت بعناد: ما ليكِش صالح.

وصلنا إلى جمع كبير من الناس، وفُرش مختلفة من الأشياء، كما قالت الصغيرة..

ساحة كبيرة امتدت على طول الشارع..

بسطت النساء قُفَفًا من الخوص داخله الفول وحلوى المولد النبوي بأشكالها، وأخري بترْمِس وحُمُّص داخل عجانين

مـن الألومنيـوم، وبجانبهـا كتـاب تمـزق مـن صفحاتـه وتلـف الورقـة لتكـون كالقرطـاس، ثـم تضـع مـن الحمـص لقـاء بعـض النقـود المعدنيـة التـي تدسـها داخـل كيـس قـماشي معلـق بخيـط في رقبتهـا، وآخـر يـرص أشـكال حلـوى عـلى هيئـة أحصنـة وبـشر بلونهـا الـوردي والأبيـض، وفُـرش أخـرى للأقفـاص بأحجامهـا والسرائـر الصغـيرة، وهنـاك آخـر يـرص أواني الفخـار بأشـكالها مـن زيـر وأوانٍ وعجاجـين وقُلَـل وزبـادي وبـيرام، كـما تتقافـز حبـات الفشـار داخـل صنـدوق زجاجـي لعربـة بعجـلات، وبجانبه يحمـل السـكر الملـون بالبمبـي والابيـض (غـزل البنـات) منفـوش داخـل أكيـاس صغـيره ينـادي بائعهـا (شـعر بنـات) فيلتـف حولـه الأطفـال، ويختطـف الأكيـاس مـن أعـلى عصـاه لقـاء نقودهـم التـي راح يدسـها في جيـب جلبابـه القصـير..

ابتسـمت، كيـف يلصـق الأكيـاس وينتزعهـا بسـهولة هكـذا؟ واشـتهيت كيسًـا، ورحـت أبحـث في جيـوبي عـن نقـود، وأحزنـني أنهـا فارغـة، وفكـرت في اسـتغلال السـارقة التـي ترافقنـي، ورحـت أبحـث عنهـا، وخـلال هـذا جذبنـي موقـع آخـر عـلى يمينـي لمبنـى تدخلـه صعـودًا بدرجتـين مـن الحجـر، مسـاحة واسـعة بسـط فيهـا عـلى قـماش كبـير أكـوام مـن الألعـاب..

عرائس ومسدسات وزمامير ونِبَل وأحصنة وسيارات وشخاليل، وأخرى مصنوعة يدويًا بالخشب، لها كفان من أغطية الكولا تضغط فتصفق الأيادي.

واتسعت عيناي حين رأيت الباب المفتوح وبداخله مفارش خضراء ممتدة لآخره، وفهمت من أول نظرة أنه مسجد، واحترتُ في أمري..

تمتمتُ بتساؤل: لما الجامع هنا ليه القفاص خدني عند الشيخ حسن؟!

التفتُّ عند انطلاق الطبل، ووجدت كف جنى تسحبني معها حيث الصوت، ووقفنا بنفس الابتسامة ننظر لحلقة الناس وهم يتراقصون بجنون، والمرأة (الحلبية)الغجرية تطرق الطبلة طرقا ماهرًا بين أصوات الأغاني الغريبة، نغمة واحدة أشبه بالنشيد، أفزعني سقوط إحداهن فجأة وهي تصرخ وتتشنج، تراجعتُ وأنا أراهم يحملونها إلى الخارج، اصطدمتُ بيوسف.. الشاب الذي سبق والتقيتُه وأدركت أنه كان يختبئ.. فهتفت: يوســـ...

قاطعني بلهفه: ششش لَحَد يعرف إنى هنا يا أبو عمو..

سألتُه: وأنت خايف من مين؟ أعتقد علاء مش هنا..

أشـار إليَّ لأخفـض صـوتي، قائـلاً: عـلاء مـين وقعـر الحلـة دلوقتـي يـا أبـو عمـو، أنـا جـاي أتفـرج عـلى النسـوان الدايخـة، لـو مسـكوني هيقلَّعـوني وياكلـوني..

تساءلت: ليه يعني؟!

تحـرك لينـدَسَّ بـين الزحـام وهـو يقـول: عشـان القعـدة قعـدة حريـم وممنـوع الرجالـة..

أحسسـت بالإهانـة وكـف جنـى تسـحبني، ركضنـا خلـف النسـاء وهـن يحملـن المغـشي عليهـا، وجدناهـن يسـحبنها إلى قمـة هضبـة مـن الرمـال والـتراب في سـاحة كبـيرة، ثـم يدعونهـا تسـقط وهـي تتدحـرج إلى الأسـفل صارخـة بجنـون وذعـر..

والجميـع يهلـل (يـا أبـو عـسران.. اشـفِ العيـان يـا أبو عـسران.. واتكحـرت واجـرِ يـا أبو عـسران)..

وجنى تعلق: الجنِّي هيطلع منها دلوقتي.

نظرت إليها فأضافت دون أن أسألها: المَرَة ملبوسة.

وانتفضـت لصرخـة المـرأة وتخبطهـا بالرمـال والـتراب، حتـى اسـتقرت بـين الأقـدام الذيـن أحاطـوا بهـا ليقيدوهـا..

***

مـا زال تأثـير مـا رأيتـه مرسـومًا عـلى وجهـي، وجنـى تضحـك بينـما كنـا عائديـن، تقـول سـاخرة: شـفت الكحريتـه يـا قزيـن؟ يـا بـوي مُـت مـن الضحـك عليـك..

كنـت قـد أشـفقت عـلى المـرأة وغيرهـا، فقـد رأيـتُ فتـاة شـابة لم تبلـغ العشريـن حتـى، وكانـوا يدفعونهـا مـن أعـلى التلـة بحجـة أنهـا ملبوسـة، بينـما تهمـس المـرأة للأخـرى: مـش راضيـة بـواد عمهـا، جينـا نداويهـا.

كانـت أعصابهـا قـد ارتخـت مـن الرقـص والطـرق، لتقـف خائرة القـوى بالأعـلى، وحـين سـقطَتْ صرخَـتْ بـما تبقـى لهـا مـن قـوة، ثـم امتـدت الأيـادي تعبـث بجسـدها الصغـير وهـم يسـلمونها ليـد أخـرى ضخمـة لوجـه أضخـم..

ظلت جنى تثرثر وتضحك وتقلد ملامح وجهي:

أنـت خفـت ورمحـت زي النعجـة لمـا شـوفت أبويـا بيطلـع منهـا العفريـت.

هتفت:

هـو أنـتِ بتتكلمـي إزاي بالبسـاطة دي؟ أبـوكِ ده بينصـب عـلى النـاس مـا فيـش عفاريـت.

توقفَتْ ورمقتْنِي بنظرة صارمة، وقالت: ما ليكِش صالح.

قلت: طيب.

وفكرت هنيهة ثم سألتها:

أنتِ إزاي لقيتيني الصبح؟ هو أنتِ جيتِ مع أبوكِ إمبارح؟

سألت ببراءة: جيت فين؟

أجبتُها: أبوكِ جه بيتنا بالليل.

قالت ببساطه: أيوة أبويا بييجي بيتكم من زمان كل عشية.

قلت: من زمان؟

ردَّتْ: أيوة.

قلت: ويعرف العمدة؟

أجابت بفخر: العمدة صاحب أبويا.

فكرت بصوت مسموع محبط:

طيب إيه دخل العمدة في إنه يجيبه بيتنا؟ يعني هو بيعدي عليه ياخده ليه؟ إيه شغلة أبوكِ عندنا؟ وإيه اللي بيجيب العمدة عندنا أصلاً ؟

بيتعشى عنديكو..

نطقت جملتها، فتطلعتُ إليها بضيق قائلًا: بتهزري!!

قالت جادة: لا والله، أبويا قال لأمي إن عِندِيكُم لقمة حلوة.

رددتُ وراءها بدهشة: لقمة حلوة؟

تقدمَتْ خطوات عني وأسرعتْ تهم بالذهاب، لكني سألتُها: أبوكِ اللي قال لك على مكاني؟

هتفت وهي تركض: لأ مش هو.

قلت: أومال مين؟

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

وغابت بعيدًا وتركتني في حيرة من أمري، لكني كنتُ قد قررتُ أمرًا.

***

انتظرت غياب الشمس، وتجاهلتُ الغبي منصور الذي يجلس على حافة الجدار، والأخرى التي تدور بالأسفل كالضائع منها نقود بالأرض، والصارخة بتوسل بين قبضتهم، وصوت الطرق والسحب، وهديل اليمامة الوحيدة في النجع، وطلقات المدفع وصراخ الرضيع ورائحة الشواء..

الجديد أني رأيت القفاص قادمًا فلم أندهش، فقد ربطت تصرفه بتتضليلي وإيصالي عند شيخ حسن بالدجال بدلًا من

المسجد الذي كان بجوار أبي عسران، وبعدها رأيت العجوز تتحرك كالخنفساء نحو البيت..

ثم رأيت رجلًا أحدب يتبعهم..

وآخر يحمل أداة لم أستطع تمييزها..

والأخير الذي أتي كان يحمل فأسًا..

توقفتُ مكاني أعلى الملحق متجاهلًا نداء أمي ووصايا أبي، وقررتُ دخول البيت مُصِرًّا على إثبات صحة تفكيري، متمنيًا أن يكون مجرد شكوك وأوهام.

***

تسللتُ حيث كنتُ بالسابق أقف عند مدخل الكلب، انزلقتُ من خلاله إلى الداخل بسهولة أدهشتني، وركضتُ بخفة في الحديقة، أراهم يدخلون واحدًا تلو الآخر في آليه عجيبة، اتخذتُ خطواتي ركضًا، والتففتُ حول البيت باحثًا عن نافذة تمكنني من رؤية ما يحدث بالداخل..

وبالفعل حصلتُ على النافذة المطلوبة..

رأيت رجلًا نحيفًا حتى برزت عظام وجهه..

أبي يسأله على مضض: قفلت الباب يا معاون؟

أمـاء لـه النحيـف وهـو يبحـث حولـه قائـلًا: أنـور جـه وسـالم أبـو عكاشـة والعمـدة والسرايـري والشـيخ حراجـي..

هنـا تقدمـت الجميلـة قائلـة ومـن خلفهـا العجـوز تماضر: ترسـنا الأبواب..

قال أبي بخفوت: متأكدة يا سماهر؟

وتطلـع نحـو النافـذة لتتلاقـى أعيننـا كـما تلاقـت عينـاي وعيناهـا الخـضراوان، لتتسـع عـلى آخرهمـا بجنـون، وهنـا قـررتُ الهـروب، ليتجمـد فجـأة جسـدي مـرة واحـدة ولا أسـتطيع الحَـرَاك، كأن جاثومًـا يرقـد فـوق جسـدي، أشـعر بـكل شيء حـولي، لكنـي مشـلول، تنسـحب روحـي منـي فأرتخـي، لـولا قبضـة قويـة انتزعتنـي.. قبضـة رجـل بلحيـة يرتـدي حجابًـا..

***

دوائـر تقـترب وتبتعـد، ووجـوه تحملـق بي، والرجـلان يحفـران في وسـط غرفـة جـدي، وآخـر يسـن مقدمـة فأسـه، وأخـرى بعيـون واسـعه خـضراء تضحـك وتتمايـل، والنحيـف يغلـق بـاب غرفـة جـدي بقفـل كبـير لامـع، ليتصـدر أمامـي الدجـال كـي لا أراه، وأبي يـدس سـترته خلـف ظهـره، وأمـي تحمـل السـكين عـلى رقبتـي وهـي تقبـض رأسي، أحـاول الـصراخ لكـن صـوتي يُكتَـم.

فتحت عيني لأجد نفسي على أريكتي في غرفه الملحق تدور بي الدنيا، بينما يجلس أبي قبالتي مطرقًا برأسه.

حين شعر أبي بحركتي تطلع إليَّ في غضب لم يخلُ من الرأفة، وهو يقول: أنت ما بتسمعش الكلام زي أمك.

وسمع صوت خطواتها تقترب فترك المكان، وبدوري لحقته كي لا أسمع المزيد من التقريع المتوقع منها، وعند الباب توقفتُ منشغلًا في ربط حذائي، حتى يبتعد فأهرب منه كذلك، التفتُّ إلى الضجيج الذي أحدثته أمي بالداخل لأسرع قبل أن تلتقطني وأركض بعيدًا عن الملحق..

وصوتها يصلني..

نووووووور..

ولكني تجاهلت وأكملتُ ركضًا نحو الخارج..

***

٤

جلست على ضفة القناة أفكر في شأن بيت جدي..

كاد عقلي ينفجر وأنا أحاول الوصول إلى معنى أو إجابة شافية..

تتردد أسماؤهم في رأسي، ومشاهدهم شريط أمام عيني، وأنا أتمتم:

المعاون.. سماهر.. أبو عكاشة..

عجزت عن الفهم، والتفتُّ إلى الصبية من خلفي، كانوا قادمين يرتدون الجلباب الأبيض، ويمسكون مقدمته بإصبعهم، بينما أيديهم وأقدامهم ملطخة بالحِنَّاء..

ضحكتُ قائلًا: إيه اللي جرى لكم؟

قال بكر ذو فتحة الأنف الكبيرة: إحنا مِتْطَاهرين.

قلتُ متفهمًا: أها فهمت.

وظهرت من خلفهم جنى تحمل مقدمة فستانها الأصفر..

هتفتُ بانزعاج حقيقي: طاهروكِ أنتِ كمان؟!

ضحكَتْ وهي تترك فستانها، وقالت: أنا بتَّريق عليهم.

ارتحتُ لقولها، لولا أن أضافت: طاهروني من زمان عند فتحي المِزَيِّن.

سقط تصريحها فوق رأسي، فغلَتْ دماء وجهي غضبًا، وأغمضتُ عيني بضجر، وبكر يعلق: زززوها زز يا بوي.

لم أفهم، ولكنها قالت له بطريقتها: اتقندل.. فاطمة زَيِّي.

وتدخل الآخر الضخم قائلاً ببلاهة قاصدًا غيظها: أبويا قال طاهرنا فاطمة أختنا عشان يقطع شرها يا شر.

هتفتُ بهم بانفعال: إيه العك ده؟ شر إيه؟

قالت هي بلؤم واضح: شر أمه.

لم يبالوا بي، والثالث النحيف كالجراد يهبُّ بدوره قائلاً لغيظها: على كده حطوا لك رماد عشان يكويه؟

تطلع إليه بكر بجدية، وقال: عيحطوا لنا رماد على كده يا ربيع؟

زمجر الضخم الأسمر: لأ، إحنا ولاد.

قال بكر قَلِقًا: أَني عروح أسأل أمي.

وتقدمهم بمشية كمشية البطريق، ومن خلفه سارو جميعًا بنفس المشية، وهم يمسكون جلبابهم.

تطلعت إليهم بشفقه، لكنها لم تهتم وهي تقول: إن شاء الله يتزمنوا.

سألتها بأسف: يعني إيه؟

أجابت: يتسطوا ويتعوروا يعني.

وأضافت سريعًا بأهمية: أنت على كده مِتْطَاهر ولا لسه؟

احتقن وجهي، وانفعلتُ حرجًا: ما تلِمِّي نفسك يا جنى!!

مطت شفتيها مستغربة، وسارت بهدوء..

سِرْت بجانبها صامتين، حتى قطعتُ الصمت قائلًا بشفقة:

بُصِّي، هو بغض النظر عن اللي عملوه فيك، بس على كده يا جنى لما أنتِ تكبري وتبقي عشرين سنة مثلًا أنا هبقي تلاتة وتلاتين أو أربعة وتلاتين كده، فممكن نتجوز، هتقبلي تتجوزيني؟

ابتسمت ابتسامه مرتبكة وهي تضم شفتيها، وقالت: ومَالُه..

ابتسمت أمازحها بسعادة: إشمعنى دي بقى ما قلتيش ما ليكِش صالح؟

رمقتْنِي بنظرة بها سمات الخجل..

قلتُ لها بجدية لتبديد حرجها: قولي لي يا جنى.

ردَّتْ: يا جنى.

ضحكتُ معلقًا: عبيطة قوي.

ردَّتْ: قنبور.

تعجبت بعصبية: أنا نفسي أعرف بتجيبي منين الألفاظ دي؟!

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

هتفتُ بتهديد: أنا لسه خاطبك، احترميني شوية بدال ما أديكِ على عينِك.

قالت بشر: والله أمردغك.

رمقتُها بنظرة صامتة، فرمقتْنِي بنظرة مزدرية لا معنى لها، فتجاوزت نظرتها وأنا أسير معها أسألها: طيب المهم تعرفي المعاون؟

قالت: تقصد عز المعاون؟

قلتُ متعجبًا: وه! ده أنتِ تعرفي البلد كلها أهو!

قالت: أيوة كلهم بييجوا عندِينا، وأنا بلعب مع عيالهم.

قلت: أها، والمعاون ده يعني شغلته إيه؟

أجابت: رئيس جمهورية.

ضحكتُ على قولها وهي تنطقها بقناعة..

تهكمتُ ساخرًا: رئيس جمهورية نجع داوود.

لم تعلق، وسارت بهدوء بجانبي.

عدت أسألها: ومين سماهر؟

أجابت بانبهار: سماهر العيقانة، بِت أيوب بتاع الحُقَن، أحلى واحدة في النجع، عليها حتة دين عينين ملونين زي ورقة البرسيم، ولا شعرها اللي زي ديل الحصان، شلالات يا بوي.

تذكرتُ وجهها حينما تلاقت عينانا بينما كنت أختلس النظر عبر النافذة ببيت جدي، فسألت: متجوزة دي؟

ردَّتْ: لأ، كَنّو كعبها عالي يا بوي، بيجيها كتير بتقول كاتبة أساميهم في ورقه فلوسكاب.

قلت: ما بقيتش مستغرب والله، طب والمعاون متجوز؟

ضحكَتْ فجأة حتى مالت إلى الأمام، وقالت:

تعرف بكر المجدم؟ اللي كان عايز يقبصني عَمْنَوِّل ومن شويه جه وهو مشندل جلبيته، وهو وأخوه كحول وظرافة هُمَّا عياله، عيال متلمين كده وملسلسين، معفنين قوي، الزبط في رجليهم يتنحر نحر بالمنجل، طب شفت فتحة مناخير كحول؟

واحـدة أكـبر مـن التانيـة، عشـان لمـا عمـل عمليـة اللـوس وسـعوا لـه مناخـيره بخرطـوم وادوا لـه بِنْـج فقـام خشـمه وسـع.

صحتُ بها: يا بنتي بس بقى، حرام عليكِ.

قالت: والكعبة صح.

سألتها: ولما هُمَّا رِمَم كده بتلعبي معاهم ليه؟

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

تنهدتُ وأنا أمرر قولها بنفاد صبر..

عـدت أسـال: المهـم عـز المعـاون ده إيـه علاقتـه بأبـوكِ شـيخ نجـع داوود الأمـين؟

توقفـت وهـي تـبرم شـفتيها قائلـة: مـا بيجيـش عِندِينـا المعـاون، أبويـا بـيروح لـه ويقابلـه في دكانـة الحـداد عكاشـة.

تمتمتُ متذكرًا: عكاشة أيوة.

وتوقفت فجأة أتذكر الطرق والسحب..

سألتُها باهتمام: يعني عكاشة ده حداد؟

أجابت سريعًا: أيوة صاحب السرايري أبو نميمة.

سألتُ مستفهمًا: تقصدي القفاص؟

توقفت لتقول بشفقة كأنها تستحثني: اسمه السرايري مش القفاص، حرام نقول عليه قفاص.

قلتُ ساخرًا متعجبًا: وأبو نميمة عادي؟!

لم تبالِ وقالت: هو صاحب أبو عكاشه قوي، نسابة أصلًا.

وأشارت بعيدًا وقالت: بُص عتلاقي دكانه جنب عم لمعي بتاع الفروج.

تطلعتُ حيث أشارت، وقلت: فراخ وبط وكده؟ ده أكيد اتقفل دلوقتي، ده أنا من ساعة ما رجعت ما شُفتِش ولا حتى عصفور تايه يوحد ربنا، ما فيش طيور ولا بهايم وده غريب على النجع.

أومأت مؤكدة وهي تهتف: أيوة صح، العمدة بركات قفلوا الدكان بعد ما زعَّق لبشاير بتّه.

توقفت أسألها باهتمام: وليه زعَّق لها؟

توقفت بدورها وأجابت بحماس كعادتها في المصائب:

دي كانت عركة كبيرة بسبب حمامة بشاير، الحمامة عِيِّت ومرضت وراحت للمقندل ده، فماتت الحمامه، وبشاير بكت عليها.

قلت: طب وهو إيه علاقته؟ ده بيَّاع فراخ مش دكتور بيطري!

قالت: ما هو اللي اتقنبر وإدى لها علاج غلط.

قلت باستهجان: يقوم العمدة يقفل له دكانه؟! ده تافه هو وبنته.

قالت: ما هو العركة بتكون صغيرة وقد النبقة وبتكبر وتزعبب يعني.

قلت: عندك حق، كلمة من هنا وكلمة من هنا وتشعلل الدنيا.

قالت: أيوة فتنها ياسر الفخ.

قلت: ده بقى اللي بيبقى المفروض بيهدي الدنيا يقوم يولعها؟

أشارت وهي تشرح بملامحها وكفيها قائلة:

خباص قوي مرزوع في السويقة علي طول، بتوَكِّلُه أم مَرَتُه، معاها شوية نعجات بترعاها، ما عاهوش حاجة غير يخبص الناس على بعضيها، عَمْنَوِّل فتن الدنيا وبعد ما خربت قال ربنا يصلح الحال، قال يعني ما عملش حاجة واد المنتول.

سايرتها قائلًا: بتاع فتن يعني.

هتفت هي كأنها تردد أغنية: "ولع يا ماجووووور خلي العركه تقووووم"..

سألتها: وولعها؟

مصمصت شفتيها مكملة: وقام زعطه بره البلد.

تعجبت قائلًا بتهكم: إزاي ده ما جاش بيت جدي؟!

قالت: ما حدش بيحبه لا هو ولا دريته، وبالذات يوسف المنقبر.

تفاجأتُ هاتفًا: هو يوسف القمبور بتاع النسوان ابن الراجل الفخ ده؟

لم تفهم وهي تتطلع إليّ..

عدت لموضوعنا مردفا: بس ما لوش إنه يمشيه، ده بيته هنا ودكانه.

هتفت بقناعة: عِندِينا اللي يعمل جريمة يزعطوه بره النجع، زي ما عملنا في جماعة شق الدواويد.

هتفت مندهشًا: وموت الحمامة بقى جريمة؟ بصراحة حواراتكم كِترت يا جنى.

جـذب انتباهـي رجـل يحمـل الفـأس عـلى الجانـب الآخـر مـن القنـاة، وضاقـت عينـاي وأنـا أحـاول تذكـر هيئـة الرجـل أمـس، أغمضـت عينـي بضيـق عندمـا عجـزت عـن التذكـر، لكنـي لم أعجـز عـن تمييـز طريقتـه في حمـل الفـأس، إنهـا نفسـها.. لـذا بحثـت عـن طريـق للوصـول إليـه بنظـرة سريعـة..

ولكنـي فكـرت لثـواني لأعـود بالنظـر إلى الصغـيرة وأسـألها: هـو أنـتِ شـكلك دخلـتِ كل بيـوت النجـع وعارفـة حكاياتهـم صـح؟

أومأت برأسها قائلة: أعرف كل عيال النجع وبدخل بيوتهم.

سألتها بحيرة: إشمعنى ما دخلتيش بيت جدي؟

مطت شفتيها وقالت: عشان ما كانش عِندِيكم عيال.

صُدِمـتُ مـن قولهـا، وقطبـتُ جبينـي تتخبـط أفـكاري ببعضهـا، وأتذكـر قـول الفتـاة عـلاء (بقـت ليهـم دريـة).. أتمتـم بخفـوت: إزاي؟!

شردت بنظـري بعيـدًا نحـو لا شيء، فـدون أن تـدري جنـى فتحـت لي أبوابًـا أخـرى مـن الحـيرة لأتـوه في عمـق الأحـداث..

ثـم رأيـت ذاك الرجـل يتحـرك مـرة أخـرى عـلى الجانـب الآخر، أجـل.. هـو نفسـه الظـل الـذي يحمـل فأسـه، انتشـلتُ نفـسي مـن شرودي لألاحقـه بمحـاذاة الطريـق، ورأسي يتخبـط بالتسـاؤل..

حتى إنني نسيت أمر التي صاحت من خلفي: بترمح على فين؟

أشرت إليها: ضروري أعرف الراجل ده رايح فين.

حاولت اللحاق بي وهي تهتف: أنْهُو راجل؟!

قلت: امشي بس وهحكيلك.

صرخت لاهثة: كنَّك مخلول، ليكون عبده لكوح اللي بيخطف العيال، ولا حازم المرقع اللي بيسرق البيوت، ولا نشأت العساس بتاع البهايم.

قلت: يا ستِّي بطلي رط.

قالت كعادتها: ما ليكِش صالح.

قطعنا المسافة كي نصل إلى الكوبري الطيني الذي يربط بين الجهتين للمرور للاتجاه الآخر ركضًا.. نلهث لنلتقط أنفاسنا.. الحقل كبير يقطعه حوض يجري فيه الماء، بينما اختبأتُ خلف السباتة الملاصقة لبيت صغير من غرفتين يعلوه أفلاق وخشب..

(السباتة: أربعة جذوع نخل أو أفلاق خشب، منصوب أعلاها قش وأعلاق عنب جافة، تحتها فرش من الحصير ومقعد من جريد النخل وبعض الأشياء للحاجة، تُصنَع للراحة في الحقل)..

أتلصص كالقرد، ومن خلفي ضاقت عينا جنى كالدجاجة..

همست لي: هنعقط عليه ونجري ولا إيه؟

سألتُها: أنتِ تعرفي الراجل ده؟

أجابت هامسة بتوتر: أيوة بشوفه الناحية التانية وأنا برمي الزبط في الترعة، وبجري قبل ما يقبصني، بيقعد يزعق بس ما بيحصلنيش، يعني عبال ما يلف أكون جريت، بس بيعقطني بالطوب زي الصواريخ واد المنتول.

قلت منبهرًا وأنا أتطلع إلى وجهها: جنى أنتِ المفروض تكتبي كتاب.

قالت ببساطة: لأ مش هتجوز دلوقتي.

ضحكتُ وعدتُ أراقبه وهو يربط جلبابه حول خصره ويبدأ في حرث الأرض..

وسمعتُ صوتها من خلفي: هو إحنا جايين عشان نشوفه وهو بيعزق؟ والله لو مسكني ليعلقني، ده أنا جاية له برجلي زي العنزة، يا بوي يلا.

لم أنتبه لتعليقاتها، تبهرني قوته في ضرب الفأس ضربة تلو الأخرى بقوة يُحسَد عليها، أهمس بإعجاب: شوفي شديد إزاي!

أضافت بتأكيد: أنور أبو الحلوف عَفِي.

قلت: يخرب بيت دي أسماء، إيه حكايته ده كمان؟

قالت: ما أعرفش.

عدت أتطلع إليها بتعجب قائلًا: إشمعنى؟

أجابت: عياله كبار.

أقنعتني إجابتها، وعدت أتطلع إليه لتتقابل أعيننا، اصطدمتُ بنظرته الحادة القاسية الوحشية المتوعدة، فاختبأت سريعًا ودقات قلبي تضطرب، أشرتُ إليها مضطربًا باتباعي لننـدَسَّ داخل بيته، لكنها تعرقلت وسقطت بالطين، كاد قلبي يتوقف من الخوف، امتلأتُ بالمزيد من الهلع فلا أستطيع التحكم في أطرافي، أنتفض بعجز وضيق وكأني أتيبس، قاومت باستماتة، وعدت وجذبت كفها لندخل ونغلق الباب..

مر من أمام الباب ببطء، تعلو نضبات قلبي على صوت خطواته، تعرقت وأنا أترقب، وكفاي ترتعشان..

شعرت بالغثيان، ودوائر تدور أمام عيني، والصور تتشابك، ورأسي يتخبط، وضاقت أنفاسي كما لو أنّ يدًا تقبض رقبتي فلا أستطيع التنفس، أميل إلى الأمام أكاد أستسلم للسقوط..

ولكن يدها أمسكت بيدي لتفتح الباب..

وتركنا المكان نتسابق كي لا يلحقنا فيفصل أعناقنا عن أجسادنا، ولا شك أن هذا سيكون سهلًا بين كل هذه الغرائب.

❋ ❋ ❋

سِرْنا سويًا نضرب حصى الأرض باتجاه البيت، وكانت الشمس تقترب من الغروب، أفكر وأحاول فهم ما يجري بربط كل شيء..

لم أفهم وأحسست بالإحباط والحيرة، وفجأه هجم علينا ثلاثة صبية، كانوا نفس الصبية الذين التقيتُهم في الصباح..

تقدم أولهم "بكر" بجلبابه القذر صائحًا: زنا.. يا مزنونة.. وحياة النبي لأعزنك عزن..

قالت دون اكتراث وهي تتقدم بشجاعة تُحسَد عليها: طب هدِّي.

تدخلت هاتفا بدهشة: هو أنتو شفيتو إمتى؟! أنتو لسه الصبح متطاهرين!!

وتطلعتُ إليها بنفس الدهشة: وبعدين هو أنتِ كده فهمتيه؟!

ظل الولد الآخر الطويل يبصق حتى تناثر الرذاذ من بين أسنانه، وقال بتوعد: أنتِ فاكرة نفسك هتهربي منينا؟ إحنا هنعجنك.

حاولتُ إبعادهم وأنا أهتف: يا شباب، حصل إيه بس لكمية العجن دي؟

هبَّ بكر بعصبية قائلًا: غست مني وهي قاعده زنبي..

تطلعت إليه وقلت: أنت ما تتكلمش خالص معلش علشان أفهم المشكلة.

وهتف الآخر: وأنا كسرت تلمي.

دافعت هي: كداب والكعبة، أنا معايا أصلًا علست قلامة.

أدركت أنها كاذبة من نبرتها ونظرة عينيها التي تطالعهم بلؤم، بينما كانت ذراع الثالث الأضخم فيهم تسرع قابضة عنقها، بينما قاومته هي بضعف..

هنا تدخلت لأرى من خلال مقاومتها علامات حول عنقها، فدفعته عنها بعيدًا ثم صددت هجومها الغاضب عليه..

فتقدم نحوي صائحًا بوحشية: وسَّع ياض أنت..

هتفتُ مكررًا بعصبية: ياض؟!

وحررت جنى مضيفًا: لأ اعجنيه يا جنى.

تأهب ثلاثتهم للقتال وهم يزمجرون، لم يغرني طولي، لكن شجاعتها وهي تتطلع إليهم بصرامة منحتني الثقة والثبات، فتأهبت للقتال بجانبها، وهنا

فرَّت وهي تصرخ: اجرِ من ناحية الوحثة.

انطلقتُ كالنعجة الطليقة، وللحظه لم أعِ ما أفعل، حتى أدركتُ سريعًا وأنا ألحقها صارخًا دون فهمَ: دي طريق دي ولا بيت ولا شارع ولا ناطقاها غلط ولا إيه؟

وركضنا نصرخ وخلفنا ثلاثة كالوحوش..

أقسمتُ إنه لم يُخِفْنِي شيء بقدر هؤلاء الصبية منذ دخولي النجع.

***

تسابقنا بين البيوت والأزقة، ولاحظتُ بيتًا عاليًا كبيرًا يمتد بفضاء يحيط به سور له باب عريض من ألواح الخشب، تلتقط عيناي عدة أرائك خشب مفروشة بفرش ذي ألوان وورود ومساند عريضة للظهر، وأخرى ملفوفة بنفس القماش..

توسطت الأريكة وصوتها يهمس بعصبية: بعد عن دوار العمدة ليقبصنا علي الغفير.

هتفت بنفس همسها بعصبية: أنا اتبهدلت على كبر بسببك يا جنى، عيال بتجري ورايا وأنا بستخبى زي العيال الصغيرة، أنا لو أبويا عرف هيعايرني العمر كله.

لم تبالِ، وأشارت لي نحو مكان يقع في منتصف الطريق يشبه البيت الصغير، له نافذة وباب، مساحته متران لا أكثر،

اختبأت هي داخله فاتبعتها، وصرختُ فجأة وأنا أكاد أسقط، أقف متسمرًا كاللوح على آخر لحظة أمام حافة حفرة عميقة لا نهاية لها، أنتبه إلى أن الباب نفسه بداخله باب للحفرة مباشرة، بينه وبين الآخر نصف متر فحسب، لذا لم أنتبه وأنا أقف مذعورًا على حافته، وصدري يعلو ويهبط، ويد صغيرة تشد بنطالي للتراجع كي أنـدَسَّ بجانبها، وهي تهمس بحذر: ششش، قنبر هنا..

ارتميت حيث أشارت..

همستُ وتأثير الصدمة باقٍ في حنجرتي: أنتِ هتموتيني، كنت هقع في الحفرة.

قالت ببساطه: دي مش حفرة، ده البير، لو وقعت نطلعوك.

اتسعت حدقتي وأنا أهمس بجنون: يا شيخة!!

همست جادة بحماس: أهو تجيب الشِّلِنَات والبرايز اللي تحت.

حاولت التغاضي عن فكرة إلقائها وأنا أنظر إلى فراغ الباب تجاه الحفرة أو البير، ترفع إصبعها مشيرة بالصمت وهي تسترق السمع لخطوات راكضة تمر بجانب المكان.

تبتسم بعدها في خبث قائلة: حِمِير.

خبأت وجهي بين كفي أحاول تبديد الصدمة..

أتمتم بعدم تصديق: إزاي كانوا متطاهرين الصبح والعصر بيجروا ورانا؟! وأنتِ كمان إزاي تدخ...

بلعتُ لساني وأنا أتطلع بجانبي.. فقد اختفَتْ.. أبحث حولي بتساؤل.. المكان ضيق ولا يوجد مخرج آخر.. خشيت أن تكون قد سقطت بالبئر دون انتباهي.. فتطلعتُ بحذر نحو فتحته.. حتى إنني نمت على بطني خشية السقوط وأنا أنظر إلى أعماقه المعتمة..

أنادي بهمس خائف: جنى..

حملقت وأنا أحاول رؤية أي شيء..

زاغت عيناي وأحسست بالغثيان، ودوائر تطوف بالظلام، وشعرت أني أنسحب نحو البئر..

"نيااااااو"..

أفقتُ على صوت القط خلفي وقد تضاعف حجمه، أنظر إليه بتعجب دون فهم.. وعدتُ أتطلع إلى البئر مناديًا بوهن: جنى أنتِ هنا؟

واتسعت عيناي على آخرهما برغم الإعياء لذلك الوجه الغاضب ذي القرون الذي أتى من الأسفل ليهاجمني..

صرختُ وأنا أركض، بينما قفز القط داخل البئر.

قطعتُ الطريق كالتائه، أنظر حولي كالضرير، فالليل آتٍ ليغلق كل معالم الطريق، أشعر بالتيه والخوف، ثمَّة مصباح أراه من بعيد يضيء وينطفئ، أسرعت نحو المصباح الوحيد لأحتمي تحت ضوئه من رعب الظلام، ولعلي أجد من يرشدني لبيتي من أهل النجع، ولكن خذلني سكانها، فعلى ما يبدو قد اندس الجميع في فرشهم كالبط والأوز من مغرب اليوم، وكأن بزوغ القمر يطردهم من شوارع النجع..

أتلهف خائفًا وحيدًا، تمنيت لو سمعت حفيف الزرع وتخبطه في الهواء، لكن لا زرع ولا هواء، فقط طريق صماء حالكة السواد، يحدها من اليسار قبور، ومن اليمين مساحات من أكوام القمامة، كما سبق ورأيت..

أناظر الظلام بجنون، وأقسم إنه الطريق الأهدأ والأكثر رعبًا في العالم.. أتمتم وأنا مرعوب: هُمَّا الناس في البلد دي بيسيبوا البلد في الليل ولا إيه؟!

تسمرت فجأة.. ولأن حواسي شُلَّت فقد اشتد السمع..

تجاهلت نصيحة والدي وأطرقت بأذني..

إنه صوت خطوات حصان، أجل حصان، يضع خلاخيل، أجل إنها خلاخيل تهتز حينما يمشي، الصوت يأتي من بعيد

يبتلعه الظلام، ازدردتُ لعابي بصعوبة، تطلعتُ خلفي ببطء، والمصباح ينطفئ ويضيء، لم أرَ شيئًا في انطفائه، وعندما أضيء رأيت حمارًا يقتحم هالتي..

تشنجت كل عضلاتي وأنا أتطلع إلى حمار أسود يجر عربة مسطحة من الخشب تسير على عجلتين..

توقف عندي.. أنظر له بخوف هامسًا: أنت طالع لوحدك ليه؟

أردت الركض لكني عجزت، فأزحت نفسي خطوات، خطوة خوف وخطوة ترقب، ومعها تحركت خطوات الحمار وخلاخيله من خلفي، ازدردتُ لعابي بصعوبة، وتوقفت ليتوقف، وخطوت مجددًا، فتحرك واتبعني..

نظرتُ إليه هاتفًا بانفعال ممزوج بالخوف: يا عمنا أنت ما لكش صاحب...

صعقتُ لظهور رجل فوق العربة، فابتلعتُ جملتي الأخيرة لأقول غيرها بذهول: أنت جيت إزاي؟

قال بصوت خشن، وهو ينصب ظهره فيسقط وشاحه ليعيده حول وجهه النحيف: جاي من الخلا.

أثر الصدمة ما زال على وجهي، وأنا أقف مكاني مصدومًا، وهو يتقدم نحوي بعربته ليقف عندي قائلاً: أوصلك معايا؟

قلت بتيه: أأ..أأ .. يمكن طريقي غير طريقك..

قال: أنا ماشي طوَّالي.

حاولت تجاوز الصدمة، ولا أصدق أني قفزت أمتطي عربته المسطحة التي تسير على عجلتين يجرهما حمار أسود كوجه صاحبه، يحملني معه كجوال بطاطس أو قفص تين، يسير بنا بخطوات ثابتة بطيئة، أتطلع إلى بصيص النور الذي يخترق الظلام بالعربة، ولا أدري من أين يأتي، أنتبه لظل بجانبي على طول الطريق، نظرت خلفي أتطلع لأرى امراة تتراقص سيرًا خلفنا على نغمات خلاخيل الحمار، تتمايل بخصرها الذي بدأ يدور وينثني وكأنها دون عظام، بدت لي أشبه بدُمَى العرائس المتحركة..

لا أصدق ما أرى.. سألته: هو أنت ممكن تسرَّع شوية؟

لم يبالِ وكأنه لا يسمعني..

أعاود التطلع، والمرأةُ على نفس حركاتها العجيبة، لو أسرعت خطوة لقفزت بجواري..

عدتُ أسأله: معلش شد بينا عشان فيه واحدة عيَّانة في مُخهَّا ماشية ورانا..

لم يبالِ، فقلتُ وأنا أطالعها باستغراب: يعني أنتِ هبلة ولا بتستهبلي؟ هِش روحي يخرب بيتك.

ألـوح لهـا هاتفًـا بينـما تهـز جسـدها كلـه بشـكل مريـب: يـا سِـتِّي والله مـا بتِغْرِينـي، أنـتِ بترعبينـي.

أسرعَـتْ خطواتهـا وهـي تتلـوى كالثعابـين، حتـى كادت تصطـدم بالعربـة..

عـاودتُ النظـر نحـو السـائق الممـل، لاحظـتُ الحـمار فتذكـرتُ أمـرًا اتسـعتْ معـه عينـاي بدهشـة، لكنـي ابتلعـتُ مـا سـأقول..

قلتُ: أخيرًا لقيت حمار في البلد دي..

التفت إليَّ السائق أخيرًا يرمقني بنظرة حادة..

قلتُ مستدركًا: أقصد اللي بيسوق العربية..

احتـدت نظرتـه، فأضفـتُ: أقصـد الـلي مـاشي بينـا في رجليـه خلاخيـل ده..

مد ساقه إليَّ قائلًا: زي دي؟

فزعـتُ لرؤيـة رِجْـل حمـار تمتـد منـه، ورميـتُ نفـسي مـن العربـة فـارًا صارخًـا بذعـر وهـو يصيـح: تعـال هوصَّلـك..

لم ألتفـت أبـدًا لـه، وركضـتُ بـكل قـوة مـن الخـوف، دون أن أتطلـع خلفـي.

"تن"..

توقفت..

لِمَ توقفت؟

لِمَ أنا لستُ في فراشي؟

لِمَا أنا هنا؟

اضطررتُ ولا أدرى ما الذي يجبرني..

وتوقفت أغمض عينيَّ وأتجاهل دقات قلبي..

"تن"..

تعرفتُـه.. إنـه صـوت جـرس الكنيسـة.. عقـدتُ حاجبـيَّ أفكـر.. ولكنـي عاتبـت نفـسي عـلى الفكـرة.. فاسـتكملت ركـضي دون الالتفـات..

أركـض ككلـب ضـال في شـوارع النجـع الـذي نـام مـن مغربـه، لا أجـرؤ عـلى التطلـع خلفـي فتتيبـس سـاقاي رعبًـا، ولا أسـمح لأذني أن تلتقـط شـيئًا يعرقـل انتباهـي، وعتمـة الليـل تـزداد سـوادًا، وجـرس الكنيسـة لا يتوقـف، وتلـك الأجسـام تحـوم فـوق رأسي تطـاردني ولا أراهـا..

ولا أريد الانتباه..

يكفيني ما رأيت حتى أهرول لأمي..

وأراحني ظهور سور البيت من بعيد.. أغمض عينيَّ شاكرًا لوجود مصباح خافت أخير لم ينطفئ.. أقف أخيرًا لالتقاط أنفاسي المضطربة.. فقد أعلن قلبي كفايته.. أميل لأسند ذراعي على ركبتي.. وصدري يعلو ويهبط بانفعال.. ورأسي إلى الأرض..

معكوس عليها ظل لرجل أحدب..

رفعتُ رأسي وقد جف حلقي، أصطدم برؤية رجل أحدب مظلم الوجه له قرنان صغيران، يقف أمامي وينظر لي نظرة ثاقبة، تراجعتُ أجرُّ ساقي وقد فقدت قدرتي على الهروب، تتقيد قدماي بالأرض، وثقل لساني وزاغت عيناي، واستسلم جسدي للسقوط..

وارتطمتُ أرضًا بقوة.. عيوني الزائغة تراه يقترب مني.. أقدام لها أظافر طويلة محدبة.. وأخري كالعاج.. خطوة أخرى ويلمس وجهي..

و...

ضوء كضوء القمر اقترب، لينكمش الرجل المحدب مكانه وينطوي بسرعة ليصغر حتى تبتلعه الأرض، كنقطه ماء في آنيه فوق النار.

وغامت رؤياي..

"تشو"

فتحتُ عيني فجأة على طلقة رصاص، كما لو كنتُ أستيقظ من كابوس..

اعتدلتُ جالسًا أنصب جسدي وأتطلع حولي، كان النهار قد أتى، ولكن الشمس لم تشرق بعد..

أقف فأرى بزوغها عبر سياخ حديدية من بعيد، أنتبه أنني داخل غرفة من طين بها سرير وخزانة وحبال ترتكن بجانب جوالات مليئة بالحبوب، حاولتُ فتح الباب ولم أستطِع، بحثت حولي ولم أجد مخرجًا، عدت أحاول فتح الباب فتعثرت في فتحه..

صحتُ: حد هنا؟!

لم يُجِبْ أحد..

حاولتُ مرة تلو الأخرى حتى أصبحت أدفع الباب..

أشعر بالاختناق وأنفاسي تضيق.. أضرب الباب بقبضتي وأشعر أن الجدران تنطبق عليَّ وغطاء السقف ينطوي.. وأصرخ صرخات استنجاد تتحول إلى رجاء وتوسل.. ومن بكاء إلى نحيب.. والغرفة تنطبق عليَّ..

أصرخ: طلعوني من هنا.. والنبي طلعووني..

طلعووووني هتخنق.. أمانة عليكم طلعوني.. أنا بتخنق..

أنا بتخنـــــــــــــــــق..

ماما..

بابا..

افتحوا لي.. أنا بخاف من الأماكن الضيقة.. والنبي افتحوا لي..

دارت بِيَ الدنيا وأنا أواصل التوسل: افتحوا لي.. أنا خايف..

وهنا شعرتُ بالغثيان، ودارت حولي الأشياء، وسقطت أخيرًا تتناثر حولي الأرض من شدة الارتطام..

أرمش بثقل وإعياء..

شعرت بانفراج الباب.. واقتحم الضوء المكان..

صوت يقول: بسرع.. اطلع يلا..

رأيت جنى من خلف غيمة عيوني تقف على رأس الباب وتشير لي بالإسراع..

نهضت بتيه واتبعتها.. تركض أمامي.. كنتُ أتعثر.. وكانت تقبض على يدي.. وهناك في منتصف الطريق نُزِعَت يدانا..

هاجمتُها بصوت باكٍ: أنتِ سبتيني ومشيتِ ليه؟

هتفت: سبتك فين؟ أنت مخلول؟

أردفت بنفس الصوت المختنق الباكي: بسببك جرينا من العيال وأخدتيني البير وهربتِ.

قالت بنزق: بير إيه؟ كنَّك مخلول، أنت اللي وديتنا هناك عند عم الحف...

قاطعتُها صائحًا والدموع تنساب رغماً عني: مخلولش، أنتِ سبتيني ومشيتِ.

صاحت بدفاع: على فكرة أنت بتتخيل حاجات وتصدقها زي المخابيل.

صحت بدوري بانفعال: وأنتِ بتورطيني وتهربي.

أشارت إلى نفسها بصدمة هاتفة: أنا؟!

هاجمتها بسخط: أيوة أنتِ.

وأشرت لها بالابتعاد، وأنا أضيف بغضب: ابعدي عني.

ارتسم على وجهها الحزن والأسف وهي تتراجع بحرج، ثم انطلقت تركض في الاتجاه الذي أتينا منه.

وقفتُ أتابعها.. أغمضت عيني فسالت دمعتي.. فاستنكرتها وأنا أمسحها بظهر كفي.. لا أدرى كيف انتهى بيَ الحال إلى البكاء وكأنني كأس وامتلأت حتى فاضت بما فيها..

موت أخي.. قسوة أبي.. وعزوف أمي ووحدتي..

أغمضت عيني مجددًا لعلي أستكين.. وعدت أفتحها سريعًا لأتطلع حولي في ريبة..

أبحث حولي عن طريقي محاولًا تذكر أي طريق أسلك..

قبل أن أعاود الركض ألوم في نفسي جنى التي تركتني هناك دون أسباب كالعادة.. أشعر بالضيق والوحدة.. وبعد ثواني فاجأني شعور الامتنان لوجودها على الأقل.. أعاود النظر حيث اختفت..

ولكني عدت أنكمش في توتر وأنا أتطلع حولي بخوف..

ثم أقطب جبيني بضيق متذكرًا قولها: أنت بتتخيل حاجات وتصدقها زي المخابيل.

في نفس اللحظة مرت علاء أمامي بوجهها الغريب.. أتذكر قبضتها هناك ببيت جدي..

قبضت بكفي حول رأسي الذي تمنى لو صمت..

وصلتُ إلى بيتي.. وتباطأت خطواتي.. أناظر المكان لا أدري أي شعور يجب أن يعتريني هنا.. أمان أم خوف.. وجلستُ مكان أبي يغصني أمر آخر.. وهو أمر والدَيَّ..

كيف لم يحركهم القلق لغيابي فيبحثوا عني أو يلوموني؟

أشحت بوجهي بعيدًا عند رؤية أبي قادمًا نحوي وعلى وجهه أمارات الغضب..

قررتُ الهروب من الصدام واتساع الفجوة بيننا أكثر، ولكنه صرخ فيّ وهو يقبض ياقتي: مش نبهت عليك ما تقربش من البيت؟

قلتُ بيأس: هو ده بس كل اللي هامّك؟

عاد يصرخ: كام مرة نبهت عليك ما تقربش من البيت؟

أبعدت يده عني مدافعًا: كان لازم أفهم..

ثار صارخًا: تفهم إيه وليه؟

صرخت بتحدٍّ :اللي مخبيه..

هاج: وإيه يخصّك؟

صرخت حتي ترقرقت الدموع في عيني: يخصّني عشان أنا عايش معاكم وأنتم عاملين مش شايفيني من وقت موت صالح.

صمت أبي بألم لم يستطِع إخفاءه، ترتعش عيناه، فأضفت مع انسكاب الدموع التي كانت على طرف عيني: أنتم مش بتحبوني..

جلس مكانه بعجز، وأنا أزداد انفعالًا، وشهقات البكاء تختلط بكلماتي وأنا أواصل: قلت لي ما تضغطش على أمك، وبقيت أتجنبها عشان مضغطش عليها وأنا جوايا محتاجها، وزاد الجفا وما بقيتش أساسًا قابلاني، غرقانة في حزن صالح، أنا كمان موجوع على فراق أخويا وحاسس بالوحدة، وكل ما أقرب من حد منكم ألاقيه طايح لحاله ولا كأن معاكم ابن تاني، بدور على اي حد أكلمه ويكلمني، بقيت بجري مع العيال زي العبيط.

وازداد بكائي، وشهقت شهقة اعتصرت قلبي..

أهمس له بخوف: كل واحد فيكم واخد جنب ومش حاسّين، بيا أنا بقيت أشوف كوابيس وتخيلات، مش مستوعب أي حاجه حصلت، ولا قادر أحدد الحقيقة من الخيال، أنا بموت لوحدي، ومحتاجكم جنبي.

قال والدموع تملأ عينيه: إحنا بنحبك يا ولدي..

هاجمته بسخط: أنت بتحب الفلوس والورث، وأهو أخدته كله، وبتعزم البلد كلها على أرواح اللي ماتوا، كل ليلة سهر

للصبح مع العيقانة، وقافل كل الأبواب عشان لا أنا ولا أمي نشوف، ونسيتني ونسيت أمي، ونسيت الناس اللي بقيت كارهة سيرتك من اللي عملته، خايف تواجههم ومستخبي هنا..

تسع إخوات.. تسعة ما فيش فيهم حد ساب عيل يشيل إسمه.. ما صعبوش عليك وأنت بتتفق مع المعاون والعمدة والحفار والباقيين؟ ويا ترى الاتفاق على إيه؟ هتديهم إيه؟

جفت عيناه وهو يقول بحزم: تقصد إيه؟

واجهته قائلاً: أمي كمان خططت معاك صح؟ أنت قلت لي هي اللي بدأت، عشان كده مش قادرين تبصوا في وش بعض.. الذنب واكلكم..

صرخ: كل ده عشانك..

صرخت: عشاني؟ إذا كان أنت لحد دلوقتي ما دخلتنيش البيت!

هاجمني: وإياك تدخله..

قلت باتهام: عشان ما أشوفش جريمتك.. أنت دافن أعمامي وجدي جوه صح؟

صاح مجددًا: مخك وداك على فين؟

تجاهلت كلامه وأنا أقول بحقد: عايزك تفتكر دايماً وأنت معاهم إن لعنة إخواتك اللي اتخلصت منهم كانت السبب في موت صالح..

واختنق صوتي وسالت دموعي وأنا أضيف بانكسار: وجنوني..

تركته ينتفض تأثرًا من خلفي، واقتحمت الملحق ضاربًا الباب بوجه قدمي، تهبُّ أمي نحوي هاتفة بلوعة: نور.. ولدي..

لكني رمقتها بنظرة غاضبة، وأنا ألقي كل شيء أمامي بثورة عارمة.. صرخت: أنا اتجنِّنْت خلاص، اتجنِّنْت..

وتركت الملحق غاضبًا..

أصعد السلم الخشبي المستند إلى حائط المرفق لأجلس هناك هاربًا باكيًا..

مر يوم تلو الآخر.. أتجاهل كل معطيات جنوني.. لا أرغب حتى بالخروج.. أجلس على درج الملحق صامتًا وأنا أتطلع نحو اللا شيء.. يملؤني اليأس والضجر.. وضجيج أفكاري يصدع رأسي..

ماذا لو كان أبي مُحقًا كجنى؟ ربما أصابني الجنون حقًا..

استقرت الفكرة في رأسي، وتلك الأصوات تعاودني فأتجاهلها لأعود إلى فراشي أحشر رأسي بين وسادتين حتى أستطيع النوم كعادتي منذ أيام..

أمي أهملتني تمامًا وأبي أدرك جنوني، فازدادت المسافات اتساعًا..

أدور كقط منبوذ شريد، وقد انتقلت من شكوكي نحوه إلى شك أخطر وأعمق تجاه الجميع، وقد نبت من هذا العمق كراهية يسقيها البعد بيننا، ويطعمها الأسى..

تتلاقى أعيننا فينظر إليَّ بعتاب حقيقي.. ويكتفي.. فأعود بالخيبات..

قررتُ أخيرًا ترك النجع بظلماته، ولكن أردت فقط توديع صديقتي الصغيرة، فذهبت صباحًا حيث تسكن، كان المكان خاليًا من الناس، والنيل على حاله، والكلب متقوقع على نفسه، مسحت على رأسه وانتظرت كثيرًا لعلها تأتي، ولكنها لم تظهر، وبعد اليأس من ظهورها قمت مغادرًا، لألاحظ الشجرة الضخمة المباركة، فوقفت عندها أتذكر حديث جنى:

"أي حتة واجعاك حط منها على الوجع يُشفى.. شوف لو مجروح هيلم الجرح"..

أحببت خرافتها سواء كانت حقيقة أم خيالًا، واقتربت ودموعي تسيل لألمس من صبغها وأضع موضع قلبي قائلاً: اشفِ لي قلبي اللي انكسر من أهلي.

ولمستها بتوديع قائلاً: أنا همشي خلاص، سلمي لي على جنى، وقولي لها نور بيقول لك أنا آسف ما تزعليش منه، هو أعصابه تعبانة بسبب موت أخوه، فأنتِ عندك حق، بس خلاص هو فهم وهيبقى كويس ويبطل الخيالات، وماشي بره النجع.

كان هناك ظل أسود ضخم يتبعني، وتضاخم فوق رأسي بغضب ثم تلاشى بغمضة عين، لم أنتبه له وغادرت منكس الرأس أحمل نفسي وخيبتي..

أطالع الناس بوجه حزين، حتى وصلت إلى بيتي، رمقته بنظرة ساخطة.. انتبهت لوجود الفتاة علاء وهي تطالع البيت بنظرة صامتة هي الأخرى.. اقتربتُ منها فالتفتت إلي بنفس النظرة المنهزمة..

قلت مواسيًا لشيء لا أعرفه: هو أنتِ يا علاء؟!

وغمغمت متراجعًا بحيرة أحدث نفسي: أقول لك أنتِ ولا أنت.. مش عارف.. المفروض لو قلت لك أنت فكده بجرحك.. ولو قلت لك أنتِ فكده برضه مش فاهم..

وتطلعت اليها وأنا أردف مهمومًا: أنتِ تعرفي بيت جدي؟

انكسرَتْ نظرتها وهي تقول: وِعِينا عليه.

عدت أسالها: يعني تعرفي جدي؟

ارتبكت نظرتها بحيث ظهر منها ارتباك الأنثى الذي لا يبدو عليها أبدًا..

شردت لتذكر مشهدها داخل البيت الكبير وهي تسترق النظر من خلف الشجرة إلى العجوز الطويل الذي بدا في الخمسين، برغم أنه قد تجاوز هذا بكثير، وكان يطالع كل شيء بنظرة حازمة وهو يشير إلى الرجل الذي أتى يلهث من بعيد هاتفًا بحزم: رأفت ومرعي طلعوا؟

أجابه الرجل بصعوبة: أيوة يا داوود بيه.

هز رأسه وعاد يسأل: وعبد العزيز وكمال؟

أجابه بارتباك: عبد العزيز طلع مع الست فوزية على البندر من الفجر زي العادة يا بيه للدكتور بس كمال أفندي ما عاريفش.

تهكم الجد بقسوة وكأنه يحدث نفسه: كمال النَيّ ولا عمره هيفلح، بتاع الغوازي، زيّه زيّ عمران دلدول مَرَته، ما يطلقها البور دي ما أخدناش حاجه منيهم غير النج، حتى الأراضي كيلوها وكل السباع إخواتها حق البنات.

لـوى الرجـل شـفتيه وهـو يهـم بالتحـرك قائـلاً: أدور لـك عليـه وأندهولـك.

أشـار لـه بالابتعـاد وهـو يلتقـط ظـلاً خلـف الشـجرة البعيـدة داخـل حديقتـه قائـلاً: مـش عايـزه، هملنـي دلوقتـي.

وأضـاف متوعـدًا: وقـول لحافـظ يجيـب لي الفـخ عـلى الحـوش القديـم.

أسرع الرجـل لتنفيـذ مـا أمـر بـه سـيده، بينـما أشـار الأخـير بنظرتـه للمختبئـة هنـاك فتحركـت نحـو الاسـتراحة المنزويـة، ليقف عندهـا قائـلاً بتـأنٍّ: إيـه جابـك يـا بـت يـا عـلاء دلوقتـي؟

خبـأت وجههـا بطـرف حجابهـا فأخفـى هـذا مـا يمحـو أنوثتها، وهـي تقـول: اتوحشـتك يـا حاج.

تهكـم قبـل أن يقـول: جدعـة يـا عـلاء، وأنـا كـمان اتوحشـتك، وزي مـا قلـت لـك، أريـح بـالي مـن الحـوار الـلي شـاغلني وهفـوق لـك، والله لأخليـكِ سـت النجـح كلـه الـلي بيتمسـخر عليـكِ ده.

تلهفت لتسقط حجابها قائله: صوح يا حاج؟

تطلـع إلى لحيتهـا التـي ظهـرت، وقـال وهـو يخفـي ازدراءه: أومـال يـا بِـت، أنـتِ بـس حـوسي في النجـع وشـوفي لي الدنيـا فيهـا إيـه وارجعـي قـولي لي، يـلاَّ مـا تُقفِيـش كـده.

أومأت برأسها بسعادة وهي تقول: ما فيش حاجة جديدة، الحكومة طلعت بره النجع خلاص.

ركز في حديثها وهي تضيف: أساسًا البِت مبروكة مش متسجله مواليد، عشان كده ما لهاش شهادة وفاة، العمدة بركات قال كده للباشا الظابط.

أومأ برأسه وهو يفكر بعمق قائلاً: يعني القضية اتقيدت ضد مجهول؟

قالت مؤكدة: أيوة يا حاج زيّها زيّ قضية المقتولة حربية اللي اتدبحت عَمْنَوِّل في السقالة.

قال شاردًا: نجع كافر.

قالت بعيون لمعت بالنظر إليه: ربنا حارسنا عشانك يا حاج، حامينا ببركة خيرك وعملك ودينك.

ابتسم وهو ينفخ صدره، بينما تطالعه بولع..

تلاشى مشهدها من مخيلتها، فتنهدت سريعًا وكأنها تستعيد نفسها، لتقول بصرامتها المعهودة: روح حدا أمك يا نور.

وتابعتها وهي تختفي بين الأشجار.. لم أعُدْ أبالي.. وهممت بالذهاب..

لكـن سـمعت صـوت صريـر البـاب، تطلعـت فوجـدت بـاب البوابـة الأكـبر للسـور يفتـح ببـطء، توقفـت مـكاني في تسـاؤل، لقـد كان البـاب مغروسًـا في الأرض، أردت المغـادرة والتجاهـل، ولكنـي كالعـادة اتخـذت خطـواتي إلى البيـت في فضـول لألقـى نظـرة، أتقـدم بحـذر والخيـال الأسـود يقـف أعـلى جـدار غرفـة جـدي يشـير إليّ بالتقـدم، بينـما كنـت مسـحوبًا دون أن أراه، حتـى اصطدمـت بجسـد لَـيّن نـدِيّ..

تراجعـت أسـتفيق مـن التيـه، تظهـر لي صاحبـة العيـون الشـبيهة بورقـة البرسـيم، وعـلى وجههـا ابتسـامة أظهـرت جمالهـا الفتـان..

قالت بلهجة آمرة:عاود حدا أمك يا نور.

سألتها بضيق: أنتِ تعرفيني؟

ضيقـت البـاب بوجهـي وهـي تـصر: قلـت لـك عـاود حـدا أمـك ومـا تجيـش هنـا تـاني.

رمقتها بنظرة مزدرية قائلًا بدفاع: على فكرة ده بيت جدي.

كررت بإصرار: عاود حدا أمك يا نور.

طالعتهـا باشـمئزاز وغضـب هاتفًـا: ضحكـتِ عـلى أبويـا واسـتوليتِ عـلى البيـت صـح؟ أكيـد العيقانـة مـش هيعجبهـا إلا راجـل وارث.

هنـا صرخـت بوحشـيه حتـى تغـيرت ملامحهـا وصوتهـا لتبـدو كأخـرى أكثـر بشـاعة: عـاود حـدا أمـك يـا نـور.

ارتعشـت مذعـورًا، وركضـت دون أن أتطلـع خلفـي، أتعثـر فأسـقط عـلى وجهـي، أحـاول الوقـوف وقلبـي ينتفـض مـن الخـوف، أهـز رأسي ليتبـدد الخيـال كـما أظـن، وحـين رفعـت سـاقًا فالأخـرى لأقـف انسـحبت قدمـي فارتطـم وجهـي بـالأرض بعنـف، أصرخ بـألم وفـزع، وأشـعر بـشيء دون إرادتي يسـحبني نحـو البيـت وأنـا أصرخ بارتيـاع، أتطلـع لأجـد حافـة فـأس حـادة تسـقط عـلى قدمـي، سـحبتها فتحـررت..

اتسـعت عنيـاي وأنـا أتطلـع إلى حامـل الفـأس.. زائـر أبي أو الحفـار.. تراجعـت زاحفًـا عـلى ظهـري..

أصرخ برعب: عايزين تقتلوا آخر وريث؟!

شـعرت بقبضتـين ترفعانـني مـن الأرض عاليًـا، وعينـاي جاحظتـان بهلـع.. طلقـات أعادتنـي أرتطـم بـالأرض.. أتطلـع لمُطْلِقهـا.. كان المعـاون يقـف ببندقيتـه غاضبًـا..

جف حلقي وأنا أتطلع إلى ثلاثتهم..

العيقانة تصرخ بجنون: عاود حدا أمك يا نور.

هرعـت نحـو الملحق دون أن أتطلـع خلفي لأقتحم المـكان بذعر..

٥

دفعتُ الباب لألقي بنفسي داخل الملحق وأنا أرتعش، لا أستطيع استيعاب ما حدث..

أحدث نفسي مصدومًا: المجرمين عايزين يقتلوني زي ما قتلوا أعمامي.

استدرت لأصعق بوجه أمي مقابل وجهي..

قلتُ وأنا أبكي شاكيًا: أنا عرفت كل حاجة عملها أبويا عشان يورث جدي لوحده، وأنتِ ساعدتيه، بس خلينا نمشي حالًا، دول عايزين يخلصوا مني كمان وحاولوا يقتلوني.

حملت نفسها بهدوء عجيب لتتهرب من المواجهة، ولكني تصدرت طريقها بإصرار..

تسمرَتْ مكانها بعيون باكية مرتعشة وهي تقول: صالح!!

قطبتُ جبيني وأنا أنظر لعينيها، وتطلعتُ إلى حيث تنظر..

وجدتُ نفسي أقف عند باب الملحق مرتديًا ملابس مختلفة..

أقترب من أمي معانقًا، وهي تبكي هاتفة: جيت ليه يا صالح؟

اقـترب صالـح متلهفـا وهـو يقـول: جيـت آخـدك، كفاية يـا أمي كـده، مـا كانش لازم أسـيبك ترجعـي النجـع لوحدك، خلينـا نمشي.

دارت بيـا الدنيـا، بينـما هتفـت هـي بـإصرار: كان لازم أرجـع النجـع، أنـا بحـس بيـه هـو حواليـا..

وتحركـت بجنـون وهـي تشـير نحـو الخزانـة المبعثـرة قائلـة: بُـص.. بُـص هنـا.. أنـا كنـت مرتباهـم وهـو حركهـم.. شـوف هـو رمـى دي.. ودي.. ودي.. هـو حواليـا بحـس بيـه.

وقفـت لا أصـدق، بينـما حـاول شـبيهي تهدئتهـا وهـو يقـول: يـا مَّـا أنـتِ بتمـوتي نفسـك زي أبويـا..

تراجعتُ مصعوقًا وأنا أهمس بضعف:

"هلاوس وتهيؤات يا نور.. اصحَ.. اصحَ"..

وهي تبكي بحسرة: مش بإيده، كان متساق بإيديهم.

هتف: تاني يا أمي؟ لسه مصدقة القصة دي؟

قالـت يائسـة: كلهـم قتلـوا عيالهـم، جـدك وكل الـلي شـاركوا في اللقيـة.

قال وهو يحاول إقناعها: ده في دماغك أنتِ وبس.

صرخَتْ: أنت مش فاهم حاجة.. ضروري أحمي نور.

صرخ: نور ميت.. فوقي.. نور ميت..

شهقت وأنا أكتم أنفاسي بكفي.. بعينين متسعتين أهز رأسي غير مصدق.. أنزلق بظهري إلى حائط غرفة أمي على الأرض منهارًا..

بكت هي قائلة: روحه هايمة حواليا.. بحس بيه..

اقترب منها قائلاً: هو ارتاح عند ربنا.. خلينا نمشي وكفاية...

قاطعته وهي تدافع بثقة: ما ارتاحش.. ما ارتاحش يا صالح.. بيحوم حايس مش مرتاح..

هز رأسه بأسى قائلًا: هو ارتاح.. أنتِ اللي جاية تقلقليه..

صاحت بدفاع: طب وأنت جاي شفت حد من البلد؟ راحوا فين الناس يا صالح؟ النجع كله اتلعن وقتلوا بعض.. لعنة الاتفاق مع الجن.. لقى باب يطلع منه ويملك النجع وقبيلته.. باب يفتح العالمين على بعض..

وأضافت بحسرة وقهر بينما أنظر ورائي لأطالع لأول مرة غرفتها التي تنطوي داخلها دائماً: جدك الملعون خدع ناس البلد الغلابة وعماهم باللقية والكنوز والغنى زي الفاديين، من بعد ما اتفق مع الجن يطلعوا له كنوز الأرض ويقدم لهم روح

طاهـرة، ومـا كانـش فيـه حفيـد غـيره، بـس المسـألة مـا كانتـش في الـروح ولا الحفيـد، كانـت في نـور، هُمَّـا عينهم كانـت عليـه وزغللوا عينـين جـدّك باللقيـة، واختـاروه عشـان زوهـري، مفتـاح لطلعتهم، وجـدك كان عـارف والطمـع سـاقه يلـم رجالـة وحريـم البلـد يكحتـوا في قلـب بيتـه عـلى الدهـب، كلـه طمعـان يغتنـي ويبقـى زي ولاد الفاديـين الأنجـاس، كل واحـد عايـز يخبـش ويغتنـي، والفـخ حـذره بـس مـا حـدش رجـع، الـكل عـام عـلى عومـه، وأنـا وأبـوك كنـا كـده، لحـد مـا سـمعت جـدّك بـودني بيحكـي معاهـم في الليـل في خلوتـه، كان واقـف قصـاده بهيئـة...

وتذكـرت الرجـل المحـدب ذا القرنـين، وعينـاي تسـتقران عـلى جـدران الغرفـة التـي كتـب عليهـا بخط سريالي طلاسـم ورسـومات تتوسـطها طاولـة مبعثـر عليهـا مخطوطـات بـأوراق قديمـة مصفـرة ملطخـة ببقـع دمـاء وروث، والكثـير مـن الزجاجـات وسـوائل أخـرى تنسـكب منهـا أرضًـا لهـا رائحـة كريهـة، وعظـام وعقـد وشـموع وتـراب.

يقول أخي باستنكار: مش آن الأوان تحكي الصدق خلاص؟

وطالعهـا بنظـرة ثاقبـة يـردف بخفـوت: هُمَّـا مـا أخدوهـوش عشـان زوهـري، أخـدوه عشـان مـا فيـش غـيره وأنـتِ عارفـة ليـه.

واستدار يقف على رأسي يطالع الغرفة، وقال: من هنا حرمتِ أعمامي ما يخلفوش، ما كنتيش عايزة غير ذريتك أحفاد وورثة.

ونظر إليها يلزمها الصمت بالمواجهة، وأكمل:

ما فيش ولا واحد فيهم اتجوز وخلف، أنا ما صدقتش كلام الناس اللي دار في البلد سنين، سحر وأعمال وشعوذة، مين الشيطان اللي ممكن يعمل كده؟ وكنت بكذِّب نفسي، لحد ما شفت في دولابك مناديل أجوازهم.

قالت بقسوة، وصوتها يخترق وعيي: أيوة أنا اللي قطعت نسلهم، وأنا اللي وريت جدّك مفاتيح الطلاسم يجلبهم هُمَّا وملوكهم، استغلوا نفس جدك الضعيفة، ولما عرفت المقابل وقتها اتجنّنْت وقولت لأبوك، وأبوك لما عرف فض الاتفاق، وأنا رجعت عن الطمع وهملنا البلد، وهربنا ٣ سنين بره النجع، فكرنا إن الموضوع انتهى، لحقونا بعد ما انتقموا من النجع كله، انتقموا منهم واحد واحد، كل اللي كان في الشراكة وقادوا النجع للموت..

تطلعت إلى كفيها وهي تكمل بلهجة معذبة: ساقوهم يقتلوا عيالهم وحالهم..

نادي بيأس: يا مَّا..

صرخت: اسكت.. أنا عارفاهم.. ملعونين بس فيه منهم زين وطيب وبيساعدني ألاقي نور وأحميه من شر اللي منيهم..

واضافت بضعف: لو أخدوه حداهم هتتفتح أبوابهم والنجع كله هيصبح ليهم.

هاجمها: وأنتِ لما تسخَّري الجن وتتعاملي معاهم أنتِ كده بريئة يعني؟ أنتِ اللي بدأتِ وفي النهاية خسرتِ أكتر حد بتحبيه.. ضناكِ الصغير.. نور عينك.. آخرة ده إيه يا مَّا؟ مفيش عمار هييجي لو البدايات غلط..

قالت بقسوة: همل النجع يا صالح وما لكش صالح..

وأردفت تحسم أمرها: غلطتنا ودفعناها من أكبادنا، وجدت الأمور، دلوقتي لا أنا ولا أبوك ولا حد من النجع هيسمحوا لهم، بقى بيننا عداوة ودم، كلهم حدا بيت جدك، قاعدين حالفين ما يمكنوهم بعد خيانتهم، أنا ما عاسيبش روح ولدي تتنجس، وهما ما عايسيبوش حق عيالهم اللي اتهدر، ما عنفرطش ونهملهم النجع، يا إحنا يا هُمَّا.

صاح: طاقة خراب ودمار فتحتيها يا مَّا والكل انأذى..

سالت دموعها برغم أمارات القسوة والإصرار على وجهها..

بينما غامت عيناي ومشهد يقفز بذاكرتي الطفولية..

(كنا أنا وأخي صالح في بيتنا بالخارج، وكنتُ ألتحق فراشي، وكان له ٢١ عامًا، بينما كنتُ أنا في العاشرة من عمري.

أسأل أخي: يا ترى لما أكبر هبقى شبه مين؟

ترك الكتاب من يده، وتطلع إليَّ قائلًا بمحبة: أفكار قبل النوم دي عارفها.

عدت أسأله ضاحكا: لأ بجد هبقى شبه مين؟

ضم شفتيه لثواني ثم أجاب: أكيد شبهي.

ضحكت واستدرت بفراشي أفكر، حتى استسلمت لأغرق في نوم عميق..

ولم أكُنْ واعيًا لأبي الذي جاء ليلًا مسلوب الإرادة..

ونحر عنقي بسكينه..

وعندما أفاق على كارثته لم يتحمل وقطع شرايين يديه..

أغمضت عيني عائدًا بذاكرتي لا أصدق..

انكمشتُ في مكاني أكثر وأكثر عائدًا لهيئتي الحقيقية..

طفل صغير في العاشرة من العمر..

أذكر تلك المواقف كشريط يمر أمام عيني..

قول الشاب عند القناة: ما صابنيش حاجة اتكل أنت يا ابني..

وسؤال البائع في السوق: وأنت جاي مع مين؟

هتاف الفتاة بتلك الليلة: أي واحدة تقلق على عَيِّلها..

صراخ الصبي: وسع ياض..

سؤال جنى: أنت على كدة مِتْطَاهر ولا لسه؟

وقول يوسف في ساحة الشيح أبي عسران: ما بيدخلوش رجالة..

وبكائي..

....

أستفيق على صوت أمي الرافض: غلطت بس مش هسيب نور ليهم، لو سبت نور هخليهم ينتصروا، مش هسلم روح ضنايا ليهم، أنا هفضل أحمي ولدي، امشِ يا صالح وخليك في طريقك اللي حماك من كل أعمال أمك، بس أنا هحمي نور..

وارتكنت أنا الصغير صاحب العشر السنوات، وقد عدت لهيئتي الصغيرة تمامًا قبل موتي.. أرتدي ملابس مهلهلة لا

تناسبني.. وقد احمرت عيناي من الدموع.. أترك المكان رافضًا سماع المزيد.. لا أصدق ما سمعت..

فقط جملة واحدة التهمت رأسي

"نور ميت.. فوقي.. نور ميت"..

واستوقفني دفتري على المنضدة لألتقطه بوهن.. أقلب صفحاته سريعًا.. بيضاء لم يُكْتَبْ فيها شيء..

أدركت حينها أنى كذلك.. ميت..

أبكي حالي وأنظر إلى مدخل الكلب بسور المنزل، الآن أدرك كيف استطعت الولوج منه..

تسارعت دموعي المتأرجحة بين الصدمة والجنون..

وركضت ولا أدري طريقي.. صرخة استغاثة تشق الصمت.. أتطلع بجانبي.. إنهم نفس الشباب الثلاثة يقيدون الشابة وهي تصرخ.. وهنا انزاح شعرها عن وجهها.. وتراجعتُ مصعوقًا..

العيقانة!!

ونظرتُ إلى الدماء التي تسيل من بين ساقيها.. تنظر إليّ كأنها مسحورة.. بينما هم كأنهم لا يروننني..

ورأيتُ الضخم يصفعها بالضربات ثائرًا: خطيتِ يا عايبة وفضحتينا..

بكت وهي تطالع الدماء بشرود: مات ابن كمال أبو داوود..

فغرتُ فاهي وأنا أتذكر صوت المرأة داخل ضريح الشيخ حسن..

"يا شيخ حسن.. قول له يشفع لي غلطتي.. والله كاتبين كتابنا بره النجع.. ووعدني نشهروه.. والله ولدي حلال.. لو عرفوا كانوا عطلوا لنا الخلفة.. وعلى حطة يدك في السر حصل.. وبقى لواحد منيهم نبتة.. بس الله يجازي أولاد الحرام اللي خلونا كيف الحرامية"..

وقول أخي:

"من هنا حرمتِ أعمامي ما يخلفوش؟ ما كنتيش عايزة غير ذريتك أحفاد وورثة"..

"كنت بكذِّب نفسي لحد ما شفت في دولابك مناديل أجوازهم"..

تطلعت إلى عينيها الباكيتين، قبل أن تغلقهما إلى الأبد بضربة قاسية من سكين غرزتها هي في بطنها..

تسقط أرضًا وهي تنتفض كالذبيحة قبل أن يحملوها..

تركتُهم وهربتُ بأقصى سرعتي.. لأتوقف فجأة كالمسمار وتلك الجثة تسقط من أعلى أمامي.. تطلعتُ إلى وجهه المحطم.. وجدته (منصور).. رفعت رأسي فرأيت العجوز وهي تمسك بالآخر..

صرخت بهلع: لأ لأ ما تعمليش كده..

صرخ الطفل متوسلا: لأ يا سِتِّي لأ.. أحن عليكِ هقع.. لاااااا..

بدا كأنها لا تراني.. وألقت بالآخر الذي صمت صراخه إلى الأبد..

رأيت الجثتين أرضًا وقد فارقتا الحياة.. تسيل دماؤهما عند أقدامي.. أستدير ببطء لأراها تتحرك كالخنفساء نحو فرنها الطين وتندَسّ داخل نيرانها.. لتتصاعد الأدخنة عاليًا..

تراجعتُ غير مصدق عيني.. واستدرتُ لأصطدم مذعورًا بذلك الوجه الممسوخ لامرأة ترتدي السواد.. امرأه كانت كالرجل تمسك سكينها وتقطع من جلدها..

هرولتُ من المكان مذعورًا.. أصطدم بكتلة من النيران.. وقعتُ أرضًا على ظهري..

أخذ المشتعل يصرخ دون توقف: آآآآآه.. آآآآآه.. ليه يا بوي.. آآآآآه..

كان نفسه السائق الشاب رفاعي، ومن خلفه وقف الحداد عكاشة مبهوتًا وهو يحمل عبوة غاز وعلبة كبريت، واقترب ليحتضن ابنه ليحترقا معًا..

زحفت على الأرض إلى الخلف غير مصدق.. وجسدي لا يتوقف عن الانتفاض.. أهرب بعيدًا نحو القناة.. أستند إلى شجرة.. أبكي بشدة.. جذبني صوت تقيؤ.. تطلعت إلى صاحبه.. إنه نفسه الشاب (حميد) الذي التقيتُه.. يتقيأ ويخرج من جوفه رغوة بيضاء.. ينحني أرضًا وهو يعتصر.. يلقي نظرة أمامه ببكاء.. أتطلع نحو الاتجاه الآخر فأرى صاحب الفأس (أنور أبو الحلوف) ينظر إليه بصمت قبل أن يرفع فأسه ويضرب نفسه ليقسم رأسه نصفين.. ويسقط منتفضًا أرضًا.. ودماؤه تسيل كالذبيحة..

هتفت بنحيب: ليه؟! ليه يا عم الحفار؟! ليه؟! لييييييه؟!

وانتزعني من مكاني صوت الطلقات.. ثلاث طلقات واحدة تلو الأخرى.. ابتلعتُ لساني.. ثم صمت كل شيء.. ثم رأيت بماء القناة الضحلة جوالين منتفخين يجريان مع الماء..

أنتفض وأنا أرى المعاون بجانبي يملأ الثالث بالصبي (بكر) الصغير ويحكم ربطه ويلقيه في الماء.. قبل أن يوجه مسدسة لرأسه ويطلق..

انهـرتُ جانبًـا أبكـي بشـدة.. أتطلـع نحـو جثثهـم.. لا أصـدق مـا أرى.. أتخيـل وجوههـم قبـل كل هـذا فيـزداد بكائـي..

"تعالَ العب معانا"..

"وسع ياض"..

"لبسك العبيط"..

ورفعت رأسي أتذكر أمرًا بعيون متسعة، وأنا أهمس بجنون: جنى؟!

ركضـتُ عـبر شـوارع النجـع ككلـب مذعـور هـارب.. لم ألتفـت إلى رؤوس صبيـة القفـاص التـي تتـدلى عـلى صدورهـم.. أو صـوت جـرس الكنيسـة والجثـث تترامـى مـن أعـلى.. وأخـرى تتـدلى مـن أعناقهـا.. ولا لقوالـب الإسـمنت التـي ينغمـر داخلهـا يوسـف وأبـوه وهمـا يسـتنجدان بعجـز..

قطعـتُ الجـسر المنحـدر ركضًـا.. توقفـت آخـره أخشـى مـا أخشـاه.. أرى دموعـي تسـقط أرضًـا لكنهـا لم تـترك أثـرًا.. أتذكـر خطـواتي بالطـين يـوم المطـر ولم تتوحَّـل.. ألتقـط أنفـاسي ببـكاء.. لا أسـتطيع تصديـق مـا سـمعت ورأيـت..

ألتفـت بهـدوء بجانبـي لأرى ظهـر رجـل بعبـاءة ووشـاح ذهبي يحفـر قـبرًا.. شـددتُ قامتـي الصغـيرة لأطالـع جثمانًـا مقيـد اليديـن والقدمـين والفـم لامرأة تقـاوم باسـتماتة بعيون سـال الكحـل فيهما..

كانت (بشاير)..

هززتُ رأسي لا أصدق..

عدت أركض نحو النيل صارخًا: جنى...

غامت الدنيا في عيني من فرط الانفعال.. أبحث لاهثًا مذعورًا.. في قلبي أمواج تتلاطم من الخوف والغضب..

سطح الماء ساكن بشوائبه الكثيرة وأعشابه المنتشرة.. أغمض عيني.. أحاول تبديد الفكرة.. ظللت لثواني أنحني مسندًا كفي على ركبتي.. وقلبي لا يكف عن الطرق.. أستشعر شيئًا..

أرفع رأسي ببطء فأرى عشرات من النساء والرجال يجرون عائلاتهم باستسلام عجيب.. ينزلون إلى الماء حتى ابتلعهم فلم يقاوم منهم أحد..

أحدق مصدومًا عاجزًا عن التصديق..

ظللت مكاني كما لو حط جبل فوق رأسي..

أحرك رأسي الثقيل ناحية النخلة.. أرى أثر شيء.. اقتربت وأنا أقف محنيًا رأسي بألم.. وأنحني لألمس عظام كلب..

أرفع رأسي أخيرًا لأعلى.. وأنهزم تمامًا بقلب صريع وأنا أرى هيكلًا معلقًا من رقبته يرتدي فستانًا أصفر..

٦

جفت دموعي ولا أدري لماذا لم أتبدد بعد إذا كنتُ ميتًا!

أفكر في كلام أمي وأعيده بذاكرتي وأربط بين قولها وبين كل ما رأيته وقد فهمتُ أخيرًا..

أهمس لنفسي محطمًا: ليه أنا مش بموت؟!

والتويتُ منكمشًا أرضًا مكاني، أضم ساقَيَّ إلى صدري.. أحاول الذهاب لعلي أتبدد مثلهم.. تسقط دمعتي جانبًا فلا تتأثر.. التراب يقف على رأسي.. ظل أسود له مخالب طويلة.. أترك له نفسي مستسلمًا لعلي أغادر مثلهم..

غمرني الظل فلم أرَ شيئًا.. في غمضة عين كنت داخل حديقة بيت جدي أطير في الهواء بدفعة قوية.. لم أعِ وأظن أن الذي حملني أصابه شيء فتركني.. أقاوم الإغماء ورؤوس حولي تشبه الدخان تتنازع.. ورجال القرية يقفون على أبواب المداخل يتطلعون حولهم بذعر.. يتلفتون بجنون نحو هؤلاء الذين يتنازعون كالريح..

وآخر يقبض ساقي فأطير في الهواء.. أعود لأرتد في عامود المنزل الرخامي فيتلقفني آخر قد تحول في ثانية من قط لشيء تحرك نحوي وتلقفني.. ويشتد القتال لأبقى حبيس قبضة لم تكن إلا لجانب الشر تقبضني بأكملي.. حتى شعرتُ أن عظامي تختلط..

أتمتم باستنجاد كطفل: ماما..

وهناك رأيتُ أمي بعيون متسعة وقلب نابض يسرع كالقطار لتعاود استكمال ما تفعله في لهفة.. إشارات تحمل هذه وتضع هذه وتسرد طلاسم بصوت مسموع داخل غرفتها الحمراء.. تدرك أنها لم تعُدْ تستطيع استدعائي بعد بكشافها ذي الضوء الأبيض.. فقد سقطتُ في قبضة ملكهم الذي قيد رجال القرية (حماة البيت) بقيود من نار بعد نزاع شديد بينهما.. ووقف حراسه بظلامهم الحالك..

رفعت رأسي إليه.. بعيون وجسد مُرتخٍ..

كان أسود الوجه بثنايا جلدية كدهاليز وطرق غائرة.. وعيون حمراء مغمورة في هيكل بارز.. وقرنين كبيرين..

أعاد لي صورة الرجل الذي التقيته يوم نزولي القرية لأول مرة..

كان رجلاً أحدب مظلم الوجه.. له قرنان صغيران.. يقف أمامه وينظر إليّ نظرة ثاقبة.. أدركت الآن المسألة.. ولكني لم أعُدْ أقاوم حتى بصراخها..

نووووور..

نظر إليَّ بعينيه المتوحشتين.. يقيد جسدي بقوة..

"نحن ملوك الممالك السبع"..

تحركوا في سرعة كعادتهم.. وأخرج جنوده الصندوق وفتحه بإشارة منه.. ليندفع فجأة عبر باب غرفة جدي أخي وهو يصرخ: بسم الله

غضب ملكهم، وتعلق جسدي في الفراغ، بينما انتفض المنزل بأكمله، وطارت أغراضه، ووجدت أخي يختنق وهو يحاول إبعاد شيء حول رقبته مستغيثًا متخبطًا، بينما أسرع المتوحش نحوي مجددًا، وقبضني ليدفعني بالأسفل..

لكن فجأة تباطأ كل شيء لأرى نفسي أسقط طائرًا ببطء نحو حفرة جدي.. لكن خطفني شيء سريع كالبرق لأسقط بعيدًا خارجها.. بين يدي ظلال أخرى لم أفهم.. ولكني وجدت ظلًّا أسود آخر يظهر بالصورة.. يحلق بجسد هلامي كبير.. يشير بذراعيه فيخرج من جوانب الأرض آخرون يقفون في صفه..

بينما كان الغاضبون مقيدين في محيط الحجرة.. وبإشارة واحدة منه للمهم ودفعهم داخل الصندوق ليغلقه بعنف..

انفك أخيرًا قيد الرجال.. وسقطوا على وجوههم.. وأسرعت نحو أخي الذي استسلم جسده وارتخى.. وأبي يقف بقلة حيلة متحسرًا.. ولكني لم أستسلم.. وظللتُ أضرب صدره ليستفيق وأنفخ في فمه لأدفع الهواء بداخله دون استسلام.. مرة تلو الأخرى دون يأس..

بدا بين يدي كالخرقة.. ولكني لم أستسلم..

ظللتُ أصرخ: أرجوك ما تموتش يا صالح.. أرجوك..

وعدت أضرب صدره حتى سعل أخيرًا.. فهلل الرجال حولي.. واعتدل جالسًا ليتطلع حوله فى فراغ الغرفة واتساعها..

توقفَتْ نظرته أخيرًا نحوي قائلاً ببكاء: أنا حاسس بيك يا نور..

ابتسمتُ ودموعي تسيل بغزارة.. أعانقه بقوة.. بينما استشعر هو وجودي بإغماض عينيه.. يقف أبي وهو يطالعني بنظرة آسفة قبل أن يهم بمُغادرة المكان..

أوقفته: بابا..

تطلع إليَّ.. فركضتُ نحوه أعانقه بقوة.. وبدوره عانقني بقوة أكبر..

٧

لم أفهم وأنا أرى أمي تقف بجانبنا، بينما هؤلاء الهلاميون يدفنون التابوت ويسلسلون أبواب غرفة جدي.

مال أخي نحو أمي قائلًا بإحباط: النهاية هي هي.

قالت: لأ.. دول ما قتلوش عيالنا.. وخلصونا منيهم.

لوى شفتيه وقال: بالنهاية سخَّرتيهم.. وعملتِ اتفاق جديد.. والنجع أصبح ليهم.. هي هي.

تنهدت قائلة بأسف: ما كناش هنقدر لحالنا.

واستدارت تغطي شعرها معلنة المغادرة .

وأضافَتْ بأسى: وأهم شرط هيراعوا نور وأهل النجع.

تنهد أخي باستسلام، وحمل حقيبته وسار خلف أمي التي استرخت بمشيتها حتى وصلوا إلى بوابة مدخل النجع..

ينظر أخي خلفه بأسف هامسًا: مع السلامة يا نور.

وخرجوا بعيدًا أناظرهم بحزن.. وأصابع صغيرة تلمس كفي.. أتطلع إليها فتبتسم ابتسامة واسعة..

كانت صديقتي المهذبة..

❋ ❋ ❋

بعد مرور اثنتي عشرة سنة..

وقف سبعة من الفتية والفتيات يحملون حقائبهم خلف ظهورهم أمام بوابة ضخمه كُتِبَ عليها:

(نجع داوود)

قال ذو الشعر الأشعث بذهول: واو.. مش قلت لكم هتبقى المغامرة تحفة.. تخيلوا ما حدش دخل النجع ده بأمر سيادي من اتناشر سنة..

قال الفتى النحيف ذو النظارات الطبية بتوتر وهو يسقط كمامته عن فمه ويشير لإعلان ملتصق على سور البوابة:

جماعة.. إحنا كده بنخرق القانون.. زائد إننا بنتعد على مملكة للجن.. وهُمَّا منبهين وكاتبين بكل وضوح: "ممنوع دخول النجع".. أنا بقول كفاية كدة ونمشي.. ناخد صورتين سِلْفِي قصاد البوابة ونمشي..

هبت الفتاة الممتلئة القصيرة معترضه: يعني جينا لحد هنا وما نشوفش بيت داوود؟!

قالت البيضاء صاحبة الشعر القصير بتعقل: ما أعتقدتش الموضوع لطيف أبدًا، لو دخلنا ممكن الدنيا تخرب، خاصة إن قبيلة الجن حكمت إن البشر ما يدخلوش النجع مقابل إنها تحمي أرواح النجع وتفضل مقيدة قبيلة شمهروش، وكده بنخل باتفاق البشر مع الجن.

ضحك الأضخم فيهم وهو يخترقهم ليتقدم هاتفًا: بقول لكم إيه كفاية تخاريف وأساطير، الموضوع كله إن فيه جريمة جماعية حصلت جوه النجع ده، والحكومة قفلت البلد، والناس بقى طلعت الأساطير دي كلها، ضروري ندخل ونشوف.

هزت البيضاء رأسها بعدم اقتناع، لكنه تقدم بحماس وهو يشير إلى البقية الذين تبادلوا النظرات بقلق، بينما دفع الباب ببطء ليتسللوا إلى الداخل واحدًا تلو الآخر..

وانغلق الباب خلفهم..

ليبدأ صوت الطرق والسحب..

والطلقات واليمامة..

وضحكة المرأة وبكاء الطفل..

نياااااااااااااااو..

تمت